قصص قصيرة

ممــر الراحليــــن

العياشي ثابت

2018

الكتاب: **ممــر الراحليــن**

(قصص قصيرة)

المؤلف: العياشي ثابت

الطبعة الأولى

لوحة الغلاف: مريم اللحية

رقم الإيداع القانوني2018M02020

ردمك:978-9920-35-646-6

المطبعة

EL JADIDA REPRO

1- عريس من السماء	6
2- منانة	8
3-قمة الإحراج	10
4-الزغبيون والكعبيون	13
5-أجراء العطش	15
6-العرافة	17
7-مسعود البدوي	19
8-الحالمون	21
9-رحلة الدجاج	23
10- الحفرة	25
11- الضمير المستتر	27
12- الشمندريات	29
13- أم العز	31
14- ورطة	33
15- اسماعيل خطوطو	34
16- الغريب	36
17-الغرفة الملعونة	37
18- الوجه الآخر	39
19- المستشفى والضريح	40
20- قتلوه	42
21- لمقدم الشيبة	45
22- قبر ولد النصراني	48
23- لوحة إشهار	50
24- استغلال النفوذ	52
25- التاجر قوتيل	54
26- قلعة كراندو المهجورة	57
27- الكماشة	60
28- صدمة قوية	62
29- صراخ وزغرودة	64
30- الشعالة	66
31- الصندروس وشب اليمن	68
32- براح المخزن وزوج قويسنة	70
33- وجدوه ميتا	72
34-البهجة والشاعر المعارض	74
35- حكام مويسى على العونات	76
36- الحلاوة والطابور	78
37- ممر الراحلين	80
38- علال الزيتونة	82
39- غربة أم	84
40-مليكة	86
41- عليوة	88
42-حلقة مفرغة	90
43- ليلة العمر	92
44- خدام الضريح والطازوطا	94
45- الشبح	96
46- هشام سايكس بيكو	98
47- قاقا والأشغال الشاقة	100

المكان الذي لا يُؤنّث، لا يُعوّل عليه...

ابن عربي

عريس من السماء

أرقها طول الأمد في متاهات العنوسة، كلما سلكت سبيل بحث، عادت من حيث لا تستطيع إطلاق زغرودة فرح: تخطت سبع موجات على شاطئ سبعة أبحر كما أشارت عليها النساء، اتقاء نحس ضبابي الشكوك، وعبَرت على متن القوارب نهرا عريض الضفتين، كي تلوذ ببركة "لالة عايشة البحرية"، وتمسحت بجذع نخلة ناءت جنباتها بحمل مرميات العوانس والعاقرات،دون أن يطرق بابها طارق أو يلتفت إليها عابر زواج...

نصحها فقيه المسجد أن تُعرض عن تُرّهات النساء، وتَلزم دعاءً صاغه خصيصا على المقاس، فباتت تردد صباح مساء: " اللهم أنزل علي من السماء عريسا".

تغلغل في ذهنها المهووس بالزواج معنى الدعاء الحسي، فصارت تمشي في الشوارع وعيناها إلى السماء، تراقب نوافذ المنازل والعمارات، علّها ترمق إشارة سعد منتظر...

هوى عليها ذات صباح كئيب، رجل خر من الطابق الثالث للعمارة، كان ينوي الانتحار. فكان جسمها الممتلئ سببا في إنقاذه من موت محقق، بينما سقطت المسكينة مغشيا عليها من قوة الارتطام.

استفاق الرجل، وجلل عليه إحساسه بالذنب تجاهها كل رغبة في الانتحار، فبات يزورها كل صباح ومساء بالمستشفى. استفاقت من غيبوبتها بعد أسبوع، فقدم لها سيلا من الاعتذارات والدموع، وأنار غرفتها بالورود والشموع، فأخذت الصداقة تنسج بينهما خيوطها بسرعة العنكبوت البانية...

تذكرت الدعاء فجأة، فصاحت في وجه صاحبها قائلة: لعمري أنت استجابة من الله لدعائي!

لقد كنت أدعو ربي أن ينزل علي عريسا من السماء، لكنني لم أتصور مطلقا أن يكون نزولك بهذه القسوة يا رجل...

ضحك العريس الموعود ثم قام للتو، في محاولة للتكفير عن ذنبه، وأحضر شاهدين عدلين، مفاجأة للعروس، لتحرير عقد الزواج.

ما إن رأت المسكينة الشاهدين يدخلان القاعة، حتى عاودتها غيبوبة فرح واندهاش، فقضيا شهر العسل في العناية المركزة...

منانة

خلف الربوات الخضراء، امتد بصر أحمد امتداد السّلسل الجاري، بعمق ضئيل وصفاء يبرز تلاوين الحصى وتجاعيد الطمي، هناك حيث كانت منانة تغسل الأغطية في نشوة عذراء ساحرة، وظلِّ سكون يكسره خرير المياه وأصوات العصافير الشاردة. تلاقت نظراتهما، فشع منها بريق إحساس غريب، فما لبثا أن تعاهدا بتخليل الأصابع والمشاعر على زواج مرتقب.

أوقدت مشاعر العشق في منانة جذوة حماس ظاهرة، فكانت تسير في خيلاء، منتشية بخطبتها من أحمد البناء، تثير بمشيتها كل حالمٍ وراءٍ، حتى إذا لمح زينتها "القايد الغندور"، تساءل من تكون، ثم أمر رجاله بضمها الى حريمه، في زمن لا رادَّ لحكمه ولا عاصي لأمره، فقد كان يد الاستعمار التي يبطش بها، وعينه التي يبصر بها، ووسيلته في إذلال القوم دون حسيب أو رقيب...

استنكر أهل القبيلة ذلك في الخفاء، فسلطوا سهام سخريتهم المقيتة على أحمد ، بينما بات المسكين يتحاشى كل الجموع ، ويتغاضى كرها عن كل منطوق ومسموع...

مرت شهور عديدة على اختفاء منانة خلف أسوار القايد الغندور، تندب حظ عشقها المغبون، وتتجرع مرارة القيد والهوان، وتستجيب قسرا لرغبات سيدها الولهان، حتى إذا رق يوما قلبه القاسي، وعدها أن يحقق حلمها بالزواج ممن تحب، فأمر أمره المطاع بعقد قران منانة وأحمد في جمع لا يطاق، معلنا أن هذا الزواج ليس بعده طلاق... فتوالد العروسان بتوالي السنين، كاتمين في الأعماق ذلك الغيظ الدفين...

انطلقت الشرارة الأولى للمقاومة، إذ تاق الناس للانعتاق من ربقة الاستعمار الجائر، وتاق أحمد للتخلص من زواج قسري قاهر، فكانت النساء يوصين منانة بالإنجاب، إذ كن يرين فيه وجاء من شبح الطلاق، فيما كان الرجال يرون فيه إشباعا لهاجس العقب والخلود...

بلغت الثورة ذروتها، وهاجم المقاومون أعوان الاستعمار وقواده الخونة، فحرروا النساء والرجال، واستبشروا بطلاق الاستعمار إلى غير رجعة، تماما كما استبشر أحمد بطلاق منانة دون قيد أو قائد...

طلقها على مضض، كي يمحو العار، ويسكت الفجار، ويثبت لنفسه العزة والكرامة أمام القوم، لكنه عجز عن تفسير الأمر لأبنائه الراشدين وبناته القاصرات...

وتهافت الناس على بيت القائد تهافت مغنم وانتقام، بعد أن لاذ الخائن وأعوانه بالفرار، وتركوا خلفهم جنات وعيون ونعمة كانوا فيها فكهين. غنم أحمد سرج الحصان الذي كان يمتطيه القائد الهارب في جولاته الجائرة، فحمله إلى بيت طليقته، ثم هام بعدها في أرض الله الواسعة لايعلم له الناس وجهة ولا أثرا...

سالت دموع النساء والرجال على السواء، بعدما وقف الجميع مندهشين ذات مساء،أمام جثة منانة، التي شنقت نفسها بحبل السرج المعلوم، فصارت في القبيلة حديث كل مكلوم ومظلوم...

وردد قصتها رعاة الغنم في القبيلة وهم يعزفون على أوتار كمنجات محلية الصنع مرددين:

كية احمد ...كاع ما تبرد

كية منانة ... مشات فكعانة

الكاميو لمشرك...جايب جلبانة

القايد الغندور... وياك شـــاهد زور

قمة الإحراج

أسندوا ظهورهم للجدار المحيط بالملعب البلدي، وأخذوا يُلقون باللّائمة على عباس،الذي قبل الاشتغال بثمن يحط من شأن "المواقفية" حسب زعمهم . أحس عباس بإحراج شديد وهو يبرر ذلك بحاجته الملحة لمبلغ يسدد به تكاليف علاج ابنه المحموم. تدخل سعيد يسأل الآخرين عن قمة الإحراج، في محاولة منه لصرف تركيزهم على صديقه المُحْرَج ، وقد استحال وجهه قطعة حمراء بلون التوت:

قال الأول:

قمة الإحراج أن يرن هاتفك داخل مرحاض عمومي، وتضطر للرد على المتكلم، فيبادرك طفل بالسؤال، وأنت تهم بالانصراف: أليس الحديث داخل المراحيض مكروها يا عمي؟ فتشيح بوجهك عن مكان تواجده وتطيل خطواتك أكثر من المعتاد...

قال الثاني:

بل قمة الإحراج أن يعرفك الناس على صورة المسؤول الساهر على تطبيق القوانين الوضعية، فيكتشفوا حقيقة ما تقوم به من غش وتزوير، فلا تستطيع الخروج إليهم قبل أن تلبس قناع الأعذار نفيا وتكذيبا...

وقال الثالث:

بل قمة الإحراج أن تتحول مدينتك فجأة إلى عمالة، فيسألك أحد الغرباء عن أبرز المعالم والمآثر السياحية والثقافية والرياضية بها، فينحبس الكلام بداخلك قبل أن تغريه بالحديث عن أكبر يقطينة نبتت بإحدى مزارع اولاد بوعنان...

قال الرابع:

بل قمة الإحراج أن يعتاد أبناؤك على تقبيل يد الأب الوقور المخلص، فيكتشفوا انصياعك خلف نزواتك، فلا تستطيع النظر إلى وجوههم قبل أن تلبس نظارتك السوداء...

انتفض حيمود من مكانه ، وفي نبرته ازدراء وتحقير لتلك التُّرَّهات المزاجية فقال:

بل قمة الإحراج أنْ جلسَ الموظف خلدون يوما، قبالة المنبر في مسجد بلدة قريبة من مدينة الولي الصالح، يستمع إلى خطبة الجمعة، وسط المصلين من أهل البلدة، وكان الموظفَ الوحيدَ بينهم جميعا، يعرفهم ويعرفونه، بل يتعاملون معه لقضاء أغراضهم الإدارية كلما دعت الضرورة. تحدث الإمام عن الرشوة فأطال، وكلما رفع خلدون عينيه صوب الإمام وجده ينظر إليه دون سواه، كأنما يستقصده بكلامه. فكان يغرس نظره في الحصير، لايستطيع تحويله باتجاه الآخرين، فقد انتابه إحراج شديد، وأحس كأنما ينظرون إليه جميعهم، فأمسك ركبتيه بكلتا يديه، والعرق يتصبب منه غزيرا ساخنا. تمنى لحظة لو انتهى الإمام من خطبة وعيد لايطيق تحمل أوزارها بشكل منفرد، فليت بالمسجد موظفون آخرون يقتسمون تهمة الارتشاء معه...حدّث نفسه بعدم الرجوع للصلاة في ذلك المسجد، فقد أحس كأن الإمام يحرض الناس عليه بكلامه، وأنهم على وشك أن ينهضوا لحظة من أماكنهم، يحملون أحذيتهم فيرجموه بها حتى يفر هاربا...دعا الإمام في متم الخطبة الأولى أن يمن على المرتشين بتوبة ومغفرة، فردد الناس آمين، لكن خلدون اعتبر أن هذا الدعاء أمر لن يتحقق بالنسبة إليه: فهو يعول أسرة من خمسة أفراد، ويزود والديه بمصروف شهري قار، ويتدبر تكاليف دراسة ابنه في كلية الطب، ودراسة الآخرين في التعليم الخاص، ويؤدي مصاريف السيارة والهواتف والانترنت، واعتاد أبناؤه على زيارة الأسواق الكبيرة لشراء الحلويات والشوكولاتة، وعلى القيام بخرجات سياحية أسبوعية، فهل تكفيه أجرته الشهرية لتغطية كل تلك المصاريف؟ لذلك عز عليه أن يقول مع الجماعة آمين.

لكنه تمنى أن يغير الإمام الموضوع في الخطبة الثانية، وأن يقصر ما أمكنه التقصير،إلا أن الامام واصل بتحذير الرشاة الذين يشاركون المرتشين في الإثم. أحس خلدون أن الامام يحرضهم على عدم إعطائه، ثم استرق النظر إليهم فرأى أعينهم في الحصير.

دعا الامام في الختام فقال: اللهم انصر من نصر الدين، فقال الناس آمين، ثم أضاف: واخذل من خذل المسلمين، فسكت خلدون مخافة أن يكون ممن خذلوا المسلمين، فتصيبه لعنة الخذلان، ثم تأبط حذاءه منصرفا، لايذكر كم ركعة صلى خلف الامام...

الزغبيون والكعبيون

نصبوا خيمة، جلبوا إليها الأواني والقدور، وما تيسر من مؤونة جاد بها أهل البيوت والدور، وراحت نسوة الدوار بعد انحباس المطر طيلة خريف وشتاء، يستمطرن الغيث بطقوس" تاغنجة". ألبسن "المحرارة" لباس العرائس والكراكيز، وحملنها فوق الرؤوس، يتبعن البقرة الدبساء ذات الهزال البيّن، ويتبادلن الأهازيج على وقع التعاريج، وعيونهن على مؤخرة البقرة، عسى أن تتبول ، فيستبشرن بقدوم المطر ...تحولت "تاغنجة "فجأة إلى ما يشبه المأتم، إذ خرّت البقرة ميتة أمام اندهاش الجميع، وهبت ريح عاتية، اقتلعت أوتاد الخيمة المنصوبة، فتفرق الناس على عجل يبتغون المخابئ والملاجئ...

انزوى بعض الرجال في ركن من أركان "المسيد"، يتجرعون مرارة لوم الفقيه، قبل أن يشتروا صمته بما أعادوه من مؤون" تاغنجة" .وراحوا يتبادلون الأسئلة المحيرة :هل كان موت البقرة في غمرة الطقوس نذير شؤم، أم أن هبوب الرياح بشير غيث؟ نطق كبيرهم" سويلم الرعدوني " بعد صمت وقال :أخشى أن يكون بيننا بقية من قبيلة الزغبيين أو الكعبيين. ضحكوا ساخرين قبل أن يسأله أحدهم عمن يكون الزغبيون والكعبيون فأجاب:

لقد نزحت إلى منطقة دكالة خلال القرون الماضية قبيلتان تسميان بالزغبيين والكعبيين، عرف أهلهما بين القبائل بشراستهم، إذ عاثوا في الأرض الفساد، وساموا الخلائق سوء العذاب، يقطعون السبيل، وينتهكون الحرمات، حتى بدت الساعة على مرمى حجر، فهي لا تقوم إلا على شرار الخلق كما جاء في الأثر.

تحاشت القبائل معاملتهم، واعتبرتهم عامل نحس وسوء طالع، بل تطيروا في غمرة الجهالة الجهلاء من ملاقاة أحدهم، فكانوا يعدلون عن قضاء أغراضهم، ويعودون أدراجهم كلما صادفوا واحدا من الزغبيين أو الكعبيين .أكثر من ذلك، عمدت القبائل إلى تحريم التعامل معهم في الأسواق، ومخالطتهم في الأفراح والأتراح، بل اتفقوا على التكتل للقضاء

عليهم وتفريقهم بين القبائل البعيدة .وهكذا تعرض الزغبيون والكعبيون لحملة تعذيب وتنكيل، فاضطروا للفرار أشتاتا، والإختباء بين القبائل في شتى الربوع .وبذلك ا ستُضعف من تبقّى منهم داخل القبيلة، فتحولت دلالة الزغبي والكعبي من صفة السطوة والجبروت إلى صفة المسكنة والدروشة.

قال فقيه المسيد :لقد تكاثر الزغبيون والكعبيون في زماننا، وكأني بهم موجودون في كل مكان من البلاد، إذ أن الناس إلى يومنا هذا ينعتون كل معدم أو شارد، وكل منكوب أومكروب، وكل مظلوم أومقهور، وكل موجوع أومفجوع، بلقب الزغبي أو الكعبي...

ما إن صمت الفقيه مرة أخرى حتى دخل على الجماعة" مبيريك البراح "يقول : أيها الناس، علينا أن نتضامن مع ذلك الزغبي الذي فقد بقرته الدبساء في " تاغنجة..."

زمجر سويلم الرعدوني "في وجهه متمتما :هذه فكرة لا تأتي إلا من "كعبي " مثلك أيها الطفيلي اللئيم...

أجراء العطش

كاد زئبق المحرار يلامس الدرجة الخمسين قبيل الزوال، فكأنما غَلَتْ أدمغتهم غلْيَ المراجِل على نار هادئة، وتراقصت أبصارهم تراقص السراب على طريق معبدة، فترنحوا باتجاه جدران ساخنة، يُجافون لهيب الحر المنعكس على زجاج الشاحنات والسيارات وحديدها. امتصت الحيطان بقايا ظلال شحيحة، واستحالت ساحة "المَوْقْف" خلاءً إلا من بضعة أنفار، لزِموا جنبات الطريق، ينتظرون قدوم قادم يطلب خدمة "عطّاش" أو اثنين، يتسابقون إليه على قلتهم، فلربما كان العمل في الداخل، فيُنهون ذلك اليوم الحار تحت سقف عالٍ يدرأ عنهم حَمارَّةَ القيظ...

توقفت سيارة "الحاج عيسى الفوال"، فتحلقوا حولها يحاولون فتح الأبواب الموصدة بإحكامٍ دون جدوى، فقد كان "الحاج" يدرك رعونتهم وتجرّؤهم على اقتحام السيارات في تسابق محموم. ولحسن حظهم ذلك اليوم، تساوى عدد الباقين منهم وحاجَةَ "الحاج عيسى" ، فطلب منهم اللحاق بتجزئة" الفتح"، حيث كان البَنّاءُ يُجري آخر الترتيبات لإنجاز السقف ... ركبوا دراجاتهم العادية الموثوقة الى فؤوس ومعاول، وقصدوا المكان غير عابئين بِحَرٍّ لافح أو سراب سابح.

أخذوا بزمام المعاول، وطفقوا يفترسون أكوام الرمل والحصى وأكياس الإسمنت بضراوة، فقد دأبت أنوفهم على كل أنواع الغبار، فاحتوت منه رِئاهُم بين تجاويفها العميقة مقدارا أو مقادير...

انزوى "الحاج عيسى الفوال" في ركن المرآب مختبئا، يرقب حركاتهم الدائبة في استغراب، بينما كانوا يفتتحون أشغال "الضّالّة" بالصلاة على خير الأنام، ويتابعون أعمال الخلط والشحن والتصفيف مثرثرين لايفترون، حتى إذا شارفوا الختام، استبدلوا هدر الكلام بالحديث عن الطعام، فَيَفْهم الحاج عيسى أن عليه القيام لجلب أواني الكسكس اللازم لسد الفراغ...

انقضّوا على "قسرية" الكسكس انقضاضا، وطلبوا من "الحاج عيسى" أن يشاركهم الطعام، فاعتذر قائلا: لقد منع عني الطبيب أكل الكسكس والإدام والسكر والملح...

أجابه "العطاش ابراهيم": " بارك عليك الضالة رقم 16"

تقطبت أسارير الحاج وابتلع لسانه ملتفتا، فيما تدارك "العطاش الحمدوني" الموقف ناهِراً زميله :"اسكتْ يا وْجْه تَمارَة، انْتَ ما تْعْرَفْ غيرْ الماكلة وكثرة الاولاد، وزايدها بالحسد"...

رد الحاج عيسى بهدوء مفتعل: لعلي أعمل بسواعدكم وآكل بأفواهكم، فإنني أجد لذة لا تضاهيها لذة في إطعام الآخرين والتفرج عليهم يأكلون بِنَهَم...

صمتوا ماضغين هذا الرد الغريب من الحاج مع لُقيمات الكسكس الساخنة، فما رأوه يوما يطعم الآخرين خارج نطاق "الضالة" أو "البالة"...فلطالما انتظروا بساحة "الموقف" أن يطل عليهم حاملا إناء، يتلذذ برؤية الآخرين يلتهمون طعامه بِنَهَم...

العرافة

كم ردد حمدان أمام الجماعة، كلما خاضوا في حديث العرافات والمشعوذين، عبارة حفظها بالسمع عن فقيه المسجد في قريته :" كذب المنجمون ولو صدقوا"... لكن انبلاج صبح ذلك اليوم المشؤوم، أتلف لديه كل محفوظ أو مسموع، إذ رأى ثقبا كبيرا في الجدار الخلفي للحظيرة، فتبين نقصان ثور من القطيع... اختلطت عليه مشاعر الحسرة والذهول بدوار يجلب الغثيان، وسط ولولة الحريم يندبن حظه العاثر.

وجد نفسه، تحت إصرار النساء، يركب الحافلة باتجاه عرافة شهيرة، لم تكف زوجته طول الطريق عن مدحها قائلة: "إنها تسقط النجوم في عز الظهر، وتجلي السراب في لفحة الحر، وتكشف حجاب الغيب ولا ريب"!!! أصر حمدان على الظهور أمام الركاب بمظهر الحازم الصبور، فانشغل عن كلام زوجته بملاعبة ابنه الصغير على مضض، بينما طفق مخبرو العرافة الشهيرة يجذبون لسانها الثرثار، لابسين أردية التعاطف والمسكنة...

وما إن دخلا على العرافة دخول الخائفين، حتى بادرتهم بالكلام دون سلام: " جئتما يوم الإثنين سائلين عن ذي القرنين، الثور الأحمر الجذاب، الذي أسال للصوص اللعاب، فهتكوا عرض الجدار، وسلكوا به طريقا بعيدة المشوار. اركض برجلك قبل ان يردوه في السوق ذبيحا، ولاتنس قبل الانصراف أن تترك "واجب الأسياد" في الجراب، كي تتيسر لك الأمور ويذهبَ عنك نحسُ الغراب"...

فعل كما سمع، ثم هم بالانصراف، لكن العرافة أمسكت يد ابنه الصغير وصاحت: " لاتدع لهفتك على البهائم تنسيك مراقبة هذا الصبي الضعيف، الذي خالفت خطوط كفه الداخلية خطوط الآخرين، إنها خط واحد يعبر الكف من اليسار الى اليمين: فهو بذلك هدف منشود للباحثين عن الكنوزالدفينة... فالحرص الحرص عليه أيها الغافلون، فإن بريق الذهب يعمي العيون، ويذكي لهيب الجنون... فهم مستعدون لأجل ذلك أن يقدموا القبيلة بأسرها قربانا لمن يدّعون أنها جيوش الكنوز، لاترضى فدية لإعادتها إلى البشر إلا أن تكون دم طفل مسفوك...

أوجس حمدان خيفة من كلام العرافة، وارتعدت فرائص الأم ، فتبدلت حسرتها على ضياع الثور خوفا على الصغير. وأمسكت بذراعه مسكا لايلين، ثم غادرا بيت العرافة تائهين.

طلبت الزوجة من حمدان العدول عن السفر بحثا عن الثور المفقود، مخافة أن يداهمها الباحثون عن الكنوز الدفينة فينتزعوا منها الصغير انتزاعا، لكنه أصر على الذهاب إلى السوق كعادته، فلطالما أزعج سمعها بكونه يصرف على البهائم أكثر مما يصرف على الأولاد... فلا غرو أن يغامر بالصغير بحثا عن الثور المسروق!!!

عاد حمدان من رحلة البحث العبثية منهك القوى دون طائل، فتحلق حوله الجيران سائلين مصبرين، وقوالب السكر في أيديهم، متهيبين أن يخبر رجال الدرك بالسرقة، فتتسع دائرة الاستنطاق لتشمل ذويهم الأبرياء، فتكفلوا بترميم ثقب الجدار، وشروخ الخواطر المكلومة...

انشغل حمدان بالحديث عن الثور المسروق، وانشغلت زوجته بالحديث عن ابنها "الزوهري". فأوعز لعباس شيطانه في غفلة من الجميع، أن يقوم باستدراج الصغير قصد إخفائه عن الأنظار، في محاولة لصرف الانتباه عن الثور المسروق. ثم عاد بعد ساعة ليجد ساحة المنزل تعج صخبا ونواحا ونحيبا...

حامت شكوك الدركيين حول عباس، فقد أبلغوا برؤية الطفل قبيل اختفائه بصحبته، فخلصت التحقيقات إلى اعترافاته بإخفاء الصبي، ومشاركته في أغلب جرائم سرقة المواشي ضمن عصابة من خمسة أفراد، بزعامة العرافة الشهيرة التي كان دورها يقتصر على تضليل وجهة البحث لدى أصحاب البهائم المسروقة...

مسعود البدوي

كانت غضبة أبيه ريحا صرصرا عاتية، طوحت به صوب المدينة، فتاه بين صفوف المتسكعين والمتسكعات، زمنا يسيرا يقتات على الفتات، قبل أن يصبح نادلا بأحد المطاعم، ويتعلم الطبخ على يد طهاة مهرة، فيتحول بعدها عاملا بأحد أفخم الفنادق في مدينة سياحية.

بعد خمس سنوات، عاد "مسعود البدوي" الى قرية أبيه متوددا طالبا صفح والده ورضاه. انبهر الجميع بسيارة مسعود، فانهالت عليه التحايا من كل جانب، وارتمى على رأس والده يقبله، فزالت غشاوة الغضب القديم، وملأت زغرودة الفرح آفاق البلدة الغائرة وسط جبال الأطلس الشاهقة، واجتمع الناس حول موائد مسعود بعد أن ذبح كبشين أقرنين بالمناسبة.

توالت أسئلة الحاضرين، فكان عليه إشباع فضولهم، وتغذية عجزهم عن استيعاب ذلك التحول الكبير في مظهر مسعود... كان استفسارهم عن طبيعة عمله في مقدمة التساؤلات، وكان استغرابهم شديدا عندما أكد لهم اشتغاله بفندق بالمدينة. انفجر "محند مهيريز" ضاحكا يطرد وجوما ساد الخيمة المنصوبة، ثم قال بسخريته المعهودة: "أنا لا أعرف بالمدينة إلا فنادق الحمير، كنت أقصدها صغيرا رفقة والدي، نترك بها حمارتنا الشهباء، ونعود لأخذها بعد قضاء مآربنا...فهل يكون بمقدور عامل بفنادق الحمير أن يشتري سيارة كالتي نرى؟ ". ضحك الآخرون مندهشين وآذانهم تتحسس رد مسعود إذ أجاب: هذا أنت يا "مهيريز"، لم يتغير حالك منذ الأزل، فقد حجبت عنك الجبال تبدل الأحوال...إن بالمدينة فنادق للبشر، تقاس جودتها بالنجوم، وتتزايد أثمنتها حسب الخدمات والرغبات...

لقد تجاوزك الزمن يا مهيريز، واتسعت الهوة بين ماضيك الغائر في أعماق التجاهل، وبين حاضر مبهر، جعل قضاء ليلة واحدة في فندق من الفنادق الفخمة يكلف الزائر مايكفي لإطعام القبيلة بأسرها

تاهت نظراتهم في عيون بعضهم بعضا، ولولا أن عهدوا صدق مسعود، لقالوا عنه أفاك أثيم

استطرد مسعود قائلا: أتدري يا مهيريز أن الحمير التي تتحدث عنها بتحقير وازدراء، قد أصبحت تشارك في المهرجانات ، وتتوج في مسابقات أسرع حمار، ومسابقات ملكة جمال الأتان، بل إنها دخلت عالم السياسة، فأصبحت تشارك في المظاهرات والمسيرات، جنبا إلى جنب مع الساسة المحنكين، وتحمل على ظهرها

شعارات تندد بالفساد والجور المبين!؟ حتى إن أحد الظرفاء قال معلقا: "إن قادة المسيرات لا يتوفرون على قواعد، لذلك ارتأوا أن يكملوا المسيرات بالحمير...

صمت الناس وقد شغلوا أفواههم بلوك الطعام، بينما كان مهيريز يسعل طالبا بيديه كوب ماء يساعده على بلع لقمة علقت ببلعومه، فاتخذ الحاضرون من ورطته مهربا من حديث يستصغر ذواتاُ تراجعت خلف الحمير، إن لم تكن أقل أو أضل...

الحالمون

على شفا جرف هار، تكاد أجسادهم تنهار كل صباح، إذ يتجمهرون على عتبات دكان مهترئ متهالك، يمسكون لوائح الرهان وعيونهم تدور يمنة ويسارا، يعتمل في دواخلهم لهيب الرغبة الجامحة في كسب مرتقب، وتتقاذفهم الظنون حد الجنون، فيعمدون بعد التشاور والتحاور حول كلب أو حصان، مرشح للفوز بالرهان، إلى التقاط إشارات من الجهات الأربع، عسى أن يكون رقم سيارة أو منطوق صبي بعدد أو علامة مرور مرقمة أو نحو ذلك، هي ما يلزم من أرقام رابحة...

كم مرة تسلل اليأس إلى أعماق" احميدة السويرتي "فأقسم بأغلظ الأيمان ألا يصرف فلسا واحدا على حلمه البعيد، لكن شيطان الرهان يأبى أن يفرط في مريديه وهو يبعث فيهم من يفوز، فيذكي شرارة الطمع لدى الآخرين من جديد...
بدأت قصة احميدة مع الرهان مذ كان عازبا، حيث كان يجالس بعض الحالمين بالكسب اللعين، فكانوا يطلبون منه أرقاما جزافية، أصابت الهدف مرات متتاليات، فباتوا يتهافتون على تخميناته المحظوظة حتى إنهم لقبوه بالسويفي ثم بالسويرتي الذي بات اسم شهرة لديه .وقد كان الرابحون في الرهان يغدقون عليه العطاء ...وسرعان ما همس بعضهم في أذن شيطانه أن يتولى ملء بطاقة رهان تنتشله من براثن العوز والحاجة، وترفعه شأوا لا تتطاول إليه الأعناق ...تردد المسكين قبل أن يعد نفسه بمشاركة فريدة مختارة، يحجم بعدها عن الرهان سواء في الربح أو الخسارة...

شاءت الأقدار أن يكسب أول رهان، فيغدق من فتاته على أصدقائه الحالمين، ويشتري بيتا في حارة الميسورين، ويبدأ حياة الزواج بحفل باذخ وذبح سمين .وسرعان ما عاوده الحنين بمرور الأيام إلى حارة الحالمين، فقد تناقصت أمواله، وتملكه غرور حظه المشكور، وطمع نفسه الآسر، فصار يتردد على مقاهي الرهان، يضاعف مشاركاته بأغلى الأثمان، حتى أوشكت نقوده على النفاذ، وأصبح على شفير الكساد، فتاه كالمعتوه بعد

الطلاق، يسخر منه الحالمون الهائمون مرددين :لقد تنكرت لأعتاب

الدكان، فأصابتك لعنة الخذلان ...كل صباح يجلس احميدة
السويرتي بجانب بائعة المسمن والحرشة، بعد أن يودع المشاركة في
الدكان، يلوك قطعة المسمن، ويلوك معها لأي كان، قصته المريرة مع
الرهان...

رحلة الدجاج

كان للطيور على اختلافها سحر خاص في نفسه التواقة للجمال، بل كان يرى في اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها ذلك البهاء المتجدد، يصغي في خشوع المتعبد إلى تراتيل الكروان، ويؤمّن في سكون على تسبيحات العنادل، ويتابع دفيف أسراب الحمام العائد إلى أوكار المنازل، وينتشي بعثرات طيور النغاف الفاشلة وهي تقتفي آثار ديدان الأرض خلف المحراث، قبل أن يسرح تفكيره بالاتجاه الخلفي سنوات إلى الوراء، حيث كانت طيور الدجاج يوما مصدر عنائه وشقائه، وسبب تعاسته شهورا خلف أسوار زنزانة "القايد موسى"...

لطالما شنف أسماع الحاضرين في مناسبات عديدة بحكاية أقربَ إلى الخيال منها إلى واقع بصم عليه الخيال الواسع لقائد تفنن في ابتداع أشكال العقاب، لكل من حاد عن جادة الأوامر، أو سولت له نفسه التطاول على المخزن بتجاهل الاستئذان، في زمن طالت فيه أيادي خدام الاستعمار، فعاثوا في الرعية أصناف العذاب...

إذ تخطى دجاج بعض الأهالي حدود ضيعة القائد التي أحاطت بالخيام المنصوبة، وكأنها سياج يحاصر البهائم والدواجن. فطن لذلك حارسه الخاص، فوشى بأسماء لاتربطها صلة بالدجاج الغاشم، إلا أن تكون تصفية حساب بينه وبينهم. تفتقت حينها عبقرية القائد، فأمر بإحضار المتهمين ودجاجهم، وأصدر حكمه النافذ بمصادرة دجاج القبيلة برمتها، على أن يتولى المتهمون اقتياده مشيا على الأقدام إلى ضيعة الحاكم العام بضواحي المدينة الحمراء...وحذرهم من محاولة اتخاذ المطايا أو ايصال الدجاج ناقص العدد، فإن ذلك سيجعلهم معرضين حتما للمكوث في ردهات السجون، ومكابدة الوساوس والشجون...

كانت "النزالات" بطريق مراكش ملاذ رعاة الدجاج الوحيد للاستراحة من عناء السفر تحت حرارة شمس النهار الحارقة، إلا أن عدم قدرتهم على السيطرة على الدجاج، وتعرض جزء منه للنفوق والتيه كان مصدر قلقهم الدائم. ولما تناقصت أعداد الدجاج بشكل ملحوظ، وأدركوا أن لامناص من العقاب المرتقب، باتوا

يذبحون من الدجاج الكثير، ويستمتعون بالولائم صحبة السكان المستقبلين، بل جعلوا من هذا المشهد أحاديث سمر ساخر كل ليلة...

علم القايد موسى أن المتهمين قد وصلوا بعدد قليل من الدجاج المصادر، فأمر بعودتهم مشيا على الأقدام، ورفض الحاكم أن يتسلم منهم ماتبقى من الدجاج، فعادوا أدراجهم يكملون ليالي الولائم اللذيذة قبل أن يحل بهم العقاب. ولما كانوا أمام القايد موسى، توجه إليهم بالسؤال قائلا: كيف تجرأتم أيها الأوغاد على أكل الدجاج ومخالفة الأوامر؟ رد أحدهم قائلا: إن أصعب شيء سيدي القائد هو أن تسيطر على شعب الدجاج، فهو شديد الخوف، كثير الصياح، مزعج الطيران، وإن أفضل وسيلة لضبطه هي أكله حتى يكون عبرة لما تبقى منه... ضحك القايد موسى من كلام الرجل، وأمر له بما تبقى من دجاج...

الحفرة

كبرنا، نلهو بجوارها، دون أن يتجرأ أحدنا على الاقتراب منها، فقد كانت حفرة غائرة عجيبة التضاريس، ذات مدخل صغير يتسع كلما غار في أعماق الأرض، وذات صيت رهيب في نفوس كبار البلدة وصغارها، يتداولون حكايات البعض مع مخلوقات غريبة تعترض سبيلهم كلما عبروا بجوار الحفرة ليلا... فمن استوقفته أتان صغيرة، حتى إذا امتطاها تزايد طولها وتعملقت قبل أن تطوّح به في مكان بعيد، فيجد نفسه بعد الاستفاقة على بعد غير يسير من المكان... ومن اعترضت سبيله قطة سوداء، كانت الحفرة مصدرها، فصارت تكلمه كلاما ألجم لسانه فانصرف كالأبكم لا يدري اتجاه بيته... ومن كان يسمع عند المرور بمحاذاة الحفرة أصواتا متداخلة لايتبين معناها، فيضطر لإغلاق أذنيه والانصراف على عجل...

وحده " بّا كبور" كان يبتسم كلما رآهم يتحاكون قصصها الخرافية دون أن ينبس ببنت شفة. وكأنه يخبئ بين ثنايا التجاعيد التي ملأت محياه أسرار ذلك الزمن الغريب، ويربأ بنفسه عن الخوض في التفاصيل. عُرف عنه أنه كان الوحيد الذي تجرأ على اقتحام الحفرة في شبابه، بل اتخذها مخبأ للتبن، وملاذا لقيلولته إبان الحر الشديد... يسأله الأهالي كلما طابت نفسه في مُقام، عن أسرار الحفرة الملعونة، فيبوح لهم ببعضها، وقد ملأت ابتسامات السخرية فمه الأدرد، كناية عن تفنيد مزاعم العابرين ليلا بجانب الحفرة: إذ بات على يقين أن مخاوفهم وتهيؤاتهم كان مصدرها ما تحاكاه الأهالي منذ زمن عن أيام "السيبة" المرعبة...

قبل بدء الحكاية، وإلى غاية حاضره، لايزال "با كبور" يلتفت يمينا وشمالا، يتحسس جوانب المكان، ويتفحص وجوه الحاضرين، وينطق بكلام أقرب إلى الهمس في الآذان، فقد عايش سطوة جبابرة "السيبة" وهو صغير، فالتصقت بذهنه تحذيراتهم وتهديداتهم بضرورة التزام الصمت، وتجنب الأحاديث فيما يأتون من سطو وسبي وتعذيب حد القتل...

كانت الحفرة بمثابة السجن الذي يودع فيه المقبوض عليهم من عتاة القبائل، حيث يعمدون لتجويعهم في بادئ الأمر، حتى إذا خارت قواهم، جعلوا منهم أهدافا لتجريب البنادق، واختبار القدرة على التصويب... وكثيرا ما كان يقضي في الحفرة مساجين لم يتحملوا نتانة الجثث المتحللة قبلهم...

قبل أن ينهي با كبور حكاية الحفرة، كانت الدموع، كل مرة، تبلل لحيته الكثة، فقد كان والده أحد ضحاياها، بل عاين وهو صغير نكبة أسرته الصغيرة التي احتجزها غزاة "السيبة"، وفرقوا شملها، وجعلوا منه خادما، ثم خماسا بلا أجر على امتداد عسير...

الغريب في الأمر أن أحدهم في زمن المحاكم، اتهم "با كبور" بالترامي على الحفرة، فلبث في السجن بضع سنين... وأغرب من ذلك أن أحد السجناء حذره وهو يغادر الحبس قائلا: " بَعَّدْ على الحفرة وادخل سوق راسك... يحساب ليك كاينة السيبة ف البلاد..."

الضمير المستتر

دخل حجرة الدرس بعد صف التلاميذ الأخير، وبعد أن ألقى بهمومه جاهدا في سلة نسيان مؤقت مع آخر زفرة دخان، ثم افتعل ابتسامته المعهودة، ينفد وصية أساتذته في مركز التكوين، حيث كانوا يعتبرونها خير وسيلة لإشاعة الطمأنينة في نفوس الصغار، وفتح شهيتهم للتحصيل بكل هدوء وإصرار. ارتدى وزرته البيضاء قبل أن يعلن بداية حصة الإعراب، وتعرب تقاسيم الوجوه عن النفور، فيلجأ إلى تلطيف الأجواء بسؤال بسيط عن أنواع الضمائر، ثم يتبعه بتصريف فعل الحضور، إذ أثبت الجميع حضورهم عدا سعاد المريضة و أحمد المسافر لحضور حفل زفاف قريب...

بعد هذا التقديم اللطيف، بسط الأستاذ جملا توزعت مضامينها بين الاشتمال على ضمائر منفصلة وأخرى متصلة، بين ظاهرة ومستترة، فراح المتعلمون يتسابقون للإتيان بجمل مفيدة توافق المطلوب، فيما تحين الفرصة لاستنتاج عنوان درس اليوم، فكتب في صدر السبورة بلون مغاير: الضمير المستتر. واستمر يطالبهم بتحويلها بين حالتي الظهور والضمور، حتى بدا له أن الدرس بات مفهوما أو يكاد...

لكن دهشته كانت كبيرة حين تساءل بعضهم عمن بنى سياج المدرسة المتهاوي، ومن قام باقتلاع أشجار الساحة التي كانت تظللهم في الحر، ومن قرر تلك المقررات الكثيرة والطويلة التي أثقلت كواهلهم، ومن قام بتكسير زجاج النوافذ التي تقيهم قساوة البرد وغبار الأتربة،ومن ومن ومن...

ولم يجد الأستاذ أجوبة غير نسب الأفعال المذكورة إلى ضمائر مستترة وغائبة، بينما راح التلاميذ يعلقون على مشهد التساؤلات، فقال أحدهم: إنها ،بالقياس إلى ما نرى من تقهقر وافتقار، ضمائر بلا ضمائر...

وقال آخر: لو كانت ضمائر ظاهرة، لطالبت بمحاكمتها يا أستاذ...

وقال ثالث: ما أصعب هذا الدرس يا أستاذ، لقد اختلطت علي الضمائر بين الحضور والغياب، والظهور والتخفي، وأكاد أشك أن من سبقونا قد فهموا هذا الدرس جيدا...

أدرك الأستاذ أن مخيلة التلاميذ قد ذهبت أبعد مما يتطلبه الضمير المستتر، فختم الدرس بالدعاء قائلا:

اللهم افضح كل ضمير مستتر، وأحضر كل ضمير غائب، ووفق كل ضمير ظاهر، منفصلا كان أو متصلا...

"الشَّمَنْدْرِيّات"

قافلة عربات تجرها بغال صبورة، تخترق الشارع الطويل في اتجاه الجديدة ذهابا، ومراكش عند الرجوع. تغدو وأهل المدينة نيام، قاصدة حقول الشمندر المسقية، فتعود محملة بالأعشاب والحشا ئش مملوءة عن آخرها، وعلى قمة الحشا ئش تجلس "حادة بنت الكركاع"، بساقين على شكل زاوية منفرجة، تتأبط ابنها الصغير، موثوقا إلى ظهرها وقد أطبق بفمه على ثديها، يستجدي حليبا ودفئا. لاأحد يستطيع التعرف عليها وعلى أمثالها من نساء القافلة: فقد تلفعن بسترة لاتعفي من الوجه إلا العينين. أغلبهن مصحوبات بصغارهن من الأبناء أو الإخوة، يتخذن منهم دروعا بشرية إذا لزم الأمر، كأن يتدخل صاحب حقل مسقي لمنعهن من دخوله ، فتمسك حادة برجل ابنها، ورأسه مهوى الأرض، مهددة إياه بضربه على صخرة، فيبتعد مخافة تهمة باطلة، فتنفجر الأخريات ضحكا، ساخرات من جبن مهين، معتدّات بفعل "حادة" البطولي في نظرهن .

أما طقوس المسير على الطريق المعبدة، فقد استمدت صلابتها من شجاعة "حادة بنت الكركاع" التي كانت تقول للأخريات: إن لنا في الطريق المعبدة نصيب، فان طول المشي فوق الحصى يدمي حوافر البغال. كان ذلك يغضب سائقي الشاحنات الكبيرة، ضاقوا بتعنت قوافل العربات ذرعا، فاتخذ مساعدوهم عصيا طويلة ، أصابت ظهر "حادة" بندب طويل على امتداد ظهرها. شاع الخبر في القوافل ، فابتعدت عن الطريق المعبدة قليلا، ومن لزمت منهن السير عليها، كانت تسير ووجهها إلى الخلف في غا لب الأحيان، حتى إذا لمحت صورة شاحنة ابتعدت على الفور.

مرت الأيام، وسئمت "حادة" من قوافل العربات، وأصبحت "الشمندريات" تتنقلن إلى العمل في الحقول على متن سيارات (البيكاب) ، التي تحمل زهاء عشرين أو أكثر من النساء والرجا ل، في رحلات محفوفة بالمخاطر، مملوءة بالضحك والغناء والرقص على إيقاعات تضبطها "حادة بنت الكركاع"، بالضرب

على جنبات "البيكاب". تتعالى الزغاريد كلما اقتربن من جمع ذكوري، يرددن في زهو ونشاط:

شوفو شوفو حادة   آلبنات علاش كادة

كانت حادة تزف كل ليلة عريسين من الركاب، فغناؤها يشعل حرارة الأجواء المندفعة، فيكثرالكلام بين الظلام والزحام، حتى إن حادة المطلقة بابنها الذي أودعته والدتها، لم تستطع يوما أن تلتحق بأفواج العاملات، فقد أحست بدوار وغثيان، وانهارت بعد أن أخبرها الطبيب أنها حامل في شهرها الثاني.

أمضت أياما على الجمر، تفكر في مصير حملها، أتتركه على هون أم تُجهضه فتدسه في التراب؟ وإذا تركته فأين تختفي حتى تضعه؟ وإذا وضعته فمن يتكفل به؟ وإذا كبر هل يلقى مصيرا شاهدته ضمن برنامج "مختفون"؟ وهل وهل وهل...؟ عشرات الأسئلة أرهقتها قبل ن تُسِر الأمر إلى" فاطنة الصويبية"، الخبيرة في أمور النساء ، والتي أشارت عليها بمصارحة صاحب فعلتها . ولما تبين لها أن الأرض انشقت وابتلعته منذ سماع الخبر، أمرتها أن تواصل العمل دون قلق، فهي التي ستتدبر أمرها، حتى إذا أخذت بطنها في الظهور، سافرت بها إلى مكان تلد فيه . لم يكن ذلك بلا ثمن، فقد اشترطت عليها مبلغا من المال، لتغطية نفقات السفر والإقامة، مع التعهد بنسيان الوليد فور ولادته.

عادت حادة لتركب سيارة "البيكاب" من جديد، و تَسابق الشبان يخطبون ودها، بعدما علموا باختفاء صاحبها، دون أن يعرفوا السبب، واستمرت على حالها تلك، قبل أن تستفيق يوما على صوت ممرضة بالمستشفى وهي تقول: شويا آحادة؟

أجابت حادة: فين أنا؟ آش وقع؟

قالت الممرضة: على سلامتك، ستركم الله بعد انقلاب "البيكاب"، لكن الجنين قد مات.

قالت حادة: الله يسلمك، لن أضع "سترة الشمندريات" على وجهي بعد اليوم، فهي لاتستر شيئا...

"أم العز"

عاشت حبيسة لونها الأسود، وحبيسة معتقد قبلي جائر، جعل منها ومن بني جلدتها أحرارا من الدرجة الثانية، بين أناس أقنعوا ذواتهم بالشرف، ووسموا غيرهم بالدونية المنبوذة دون العبيد... يرفضون مصاهرتهم، ومشاركتهم الأفراح والأتراح، ويعتبرون تطاولهم عارا يناطح الكفر البواح...

كانت "أم العز" نبيهة لبيبة، ذات طموح غريب، جعلها تغادر القبيلة في سن مبكرة، لتجد نفسها بين أحضان أسرة ميسورة ، دون أن تنزع عن نفسها صفة خادمة البيوت. انتبه أفراد الأسرة الميسورة إلى رجاحة عقلها ووجاهة تفكيرها، فباتوا ينصتون إليها بإمعان، ويستشيرونها في كل الأمور ، فقد راكمت من التجارب ونفائس الفكر مثلما راكمت من ويلات الاحتقار والقهر...

كبر الولدان في رعايتها واتخذا من جوار البيت مساكن منعزلة، وظلا يسيطران على ممتلكات والدهما المرحوم، الذي ترك إلى جوارهما وفي عهدتهما صبية صغارا من زوجته الثانية. وبعد وفاة سيدة المنزل أخذت "أم العز" مكانها في النصح والارشاد، وتوجيه الأمور إلى وجهة السداد.

لمس الولدان في أخيهما اليافع عمران نزوعه نحو محاسبتهما، بل اتهامهما بالسيطرة على محاصيل الممتلكات، إذ كانا يستأثران بما يزيد عن المصاريف اليومية، ويدخرانه في حساباتهما الخاصة. أكثر من ذلك، كانا يعتقدان أن الاستئثار بالفائض حق لهما مقابل الإشراف على العائلة. فسولت لهما نفسهما إبعاد أخيهما عن الدراسة، وإرساله إلى المدينة، معتقدين أن تمدرسه سيجعله واعيا بحقوقه، مهددا لرصيدهما البنكي واستئثارهما بمحاصيل التركة المشتركة.

خاضت "أم العز" معهما حربا كلامية طاحنة، محذرة إياهما من مغبة الإجهاز على حق أخيهما في التعليم، والزج به في غياهب التيه وسط المدينة العملاقة دون جدوى. فلقيت منهما ألوانا من التهديد والوعيد، ثم استسلمت للصمت إزاء ما أصابها من علة ووهن. واستسلم عمران لسطوتهما، فغادر البلدة صوب المجاهيل...

اهتدى الأخوان إلى ثني بقية الصغار عن التمدرس اتقاء شر التهديد... ذاق عمران ويلات التشرد والتيه في دروب المدينة، فبات مدمنا على كل أنواع المخدرات. وازداد حنقه وحقده على إخوته حين أخبره أحد القادمين من البلدة بانقطاع إخوته الصغار عن الدراسة أيضا...

عاشت القبيلة يوما داميا كئيبا حينما عاد عمران ذات صباح يحمل ساطورا، "مشرمل " الذراعين، حيث وضع حدا لحياة أخويه وأسرتهما، قبل أن يجثو على ركبتيه باكيا وهو ينظر إلى دموع " أم العز" المنهارة...

ورطة

قصدت شباكا بنكيا لسحب مبلغ من النقود، كان خاليا من الزبناء إلا فتى متشردا نام عند عتبة الأزرار... ترددت لحظة قبل أن أقرر السحب دون إفاقة الفتى، وحدثت نفسي المتحسرة على وضعه البئيس بانتزاع ورقة مما سحبت ووضعها في جيب سرواله. استفاق فجأة وقد أحس بيدي تلامس جيبه، نظر إلي، وكانت النقود المسحوبة بين أصابعي، قام للتو، أمسك بملابسي ، ثم صاح في الناس أنني أخذت منه نقوده... حاولت أن أشرح له وللفضوليين المتحلقين ماجرى دون جدوى. احتار رجال الشرطة في إسكاته : فقد امتنع عن ركوب سيارة الشرطة قبل أن أسلمه ماله. طلب مني الشرطي تسليمه المبلغ بكامله بغمزة عين، ثم وجدت نفسي أمام ضابط بلباس مدني...حكيت له ماجرى بالتفصيل الممل. بينما خرج صديقي المشرد عن صمته وخاطبني قائلا: هل وضعت يدك في جيبي أم لا؟ قلت نعم. ثم أمر الضابط بتسجيل المعلومة. تداركت الأمر بأنني ما وضعت يدي في جيبه إلا لأودع فيه ورقة نقدية من فئة مئة درهم. رد بسرعة البرق: لو كان أمثالك يتصدقون بمئة درهم لما كان بالمدينة مشرد واحد. ثم قام من مكانه وأخرج جيبيه : كانا فارغين تماما. أصابني والضابط ذهول مما جرى ويجري، فقد كان الضابط يعرفني عز المعرفة، لكن واجبه كان يفرض عليه الاستماع الينا وتحرير المحضر تفاديا لصراخ ذلك المعتوه. أنا على يقين أنه فطن لرمي الورقة قصد إثبات أدعائه. سأله الضابط قائلا: من أين لك هذا المبلغ؟ فأجاب: هكذا أنتم دائما، تحتقرون الصغار، هل تجرؤ أن تسأل هذا السؤال من استغلوا النفوذ ونهبوا المال العام؟ كلا... التفت إلي الضابط مبتسما: هل لديك تذكرة تثبت سحبك لهذا المبلغ؟ قلت : لا ، ليست لدي فقد أنساني أخذها ، لكن بالإمكان معرفة ذلك من وكالتي البنكية. أحس المشرد أن خطته لم تكن مدروسة من كل الجوانب، فرمى بالأوراق النقدية في وجهي وقد أصابه ما يشبه الهيستيريا. ثم بكى بكاء مرا... أطرق الضابط يلتمس الأعذار للمشرد، ثم خاطبه قائلا: لقد أسأت إلى هذا الرجل، فكيف ستحفظ له ماء وجهه؟ قلت للضابط: لن يستطيع أحد حفظ ماء وجهي مادام في الشارع مشردون يبيتون في العراء...

اسماعيل "خطوطو"

وحدها كلاب "الكونت دوباري" كانت تُدمي ذيولَها وأرجلها من فرط الهياج إزاء كلاب ضالة، تمنعها السلاسل من ملاحقتها، وبث سموم القيد في جلدها الموبوء... كانت "الشيخة طامو" ذات السبعين خريفا أو يزيد، تسكن إحدى الشقق البديلة عن عشوائيات المدينة، غير بعيدة عن حانة الصعاليك، تطل كل يوم من نافذتها الضيقة، لتتابع فصلا من جنوح ابنها، فقد كانت ترى فيه ضربا من جنون كلاب " الكونت دوباري"...تعيش وساكنة الزقاق أفلام رعب متكررة، بطلها اسماعيل خطوطو، كل يوم في ذات المكان... لم تكن سلاسل الشيخة طامو سوى أبواب حديدية موصدة، يخبطها ساعة الهياج بقوة، حتى إذا بلغ اليأس مداه، استل من حزامه مدية يتلألأ بريقها فيعمي عيونا مشدوهة، ويربك قلوبا خائفة، تترقب حركات المعتوه وسكناته. ساعتها يبدو الزقاق خاليا من المارة ، موصدا في وجه السيارات والدراجات دون علامات المنع، حيث يتحول اسماعيل خطوطو إلى قانون جديد يلغي كل علامات التشوير...ينزع ملابسه في بلادة وعجرفة مقيتة، ويرسل وابلا من السب والشتم لكل العيون المراقبة من خلف النوافذ، تتأمل خطوط جسده البادي مثل خريطة متشابكة المفاتيح...

ومع أول جرة سكين، يفور دم اسماعيل خطوطو، فيبدو منتشيا برؤية الدم السائل مرددا: "اخرج أيها الدم الخبيث، الليلة سأستبدلك بدم الحصان"... ثم يتوالى عزف سمفونية الدماء عبر كمنجات الذراع والوجه والساقين، فيما تتقطب وجوه الرّائين، وتتنمل أطرافهم، وتدور رؤوس الضعفاء حد الغثيان...

صادف حظي التعيس، خروجي المفاجئ من الزقاق المتقاطع، فلم أنتبه إلا وعيني في عين اسماعيل خطوطو، وهو يمسك بالسكين... تعالى صراخ المتفرجين، فصحت فيه دون شعور: ماذا تفعل يا اسماعيل؟ تجمد الدم في ركبتي، إذ اتجه نحوي يجرجر قدميه، ثم ارتمى والسكين في يده يلفني بذراعيه معانقا باكيا يقول: " أرأيت ما يجري ياصديق الدراسة؟ أرأيت كيف كنا وكيف أصبحنا؟"...

ربتت بيدي على كتفيه، وأنا أتحسس ضربة السكين في جسدي كمن يقرص نفسه للحسم بين الحلم واليقظة... كان وجهي ويداي ملطخين بدم اسماعيل، الذي تهاوى من حضني بعد أن خارت قواه، وبدا كثور صريع في حلبات الأندلس... رفعت رأسي إلى شرفات المنازل، كان الجميع يحثني على الفرار، فنادرا ما يسلم المقتربون من شفرة خطوطو...استغرب الجميع نجاتي، فربما كانت لحظة ضعف منه إزاء لقطة نوسطالجية...

وبينما كانت سيارة الإسعاف تنقل اسماعيل خطوطو إلى المستشفى، وهو يضحك في وجه الشرطي مثرثرا:" خذوا اسماعيل خطوطو إلى السجن ، فقد اعتدى على اسماعيل خطوطو هههه"...

انهالت علي أسئلة الشرطة من جهة، وعبارات التهنئة على النجاة من جهات أخرى، دون أن أفهم شيئا، فقد بات تفكيري وإحساسي في حاجة إلى إنعاش...

انتبه بعض الجيران إلى لطخات الدم في أطرافي ووجهي، فجاءني أحدهم بقنينة ماء يخلصني من آثار الدم، فيما بقيت دماء اسماعيل وصمة هياج على الإسفلت والجدران والقلوب ... دون أن يغسلها أحد...

الغريب

جاب أزقة الحي العشوائي ذات ربيع، خاطها ذهابا وجيئة، تتفرسه الوجوه الواجمة لا يلقي لها بالا: كان غريب الأطوار في كل شيء، على الأقل بالنسبة للأهالي المعتادين على إلقاء الكلام على عواهنه لكل جار أو مارّ... بات حديث النزالات الهامشية للاعبي الورق وغيره، حتى إنه أصبح مثار شك وريبة، سيما وقد عمد رفقة مجهولين إلى بناء حوش في الظلام،اتخذه ملاذا وسكنا، بل مخبأ يقيه شر النظرات والألسنة.
وسرعان ما أغلق باب بيته المطلي بالجير الأحمر، واختفى عن الأنظار أياما معدودات، فتناسلت خلفه عشرات الأسئلة، تستنطق تخميناتهم حول كيفية حصوله على بقعة مهجورة لصاحبها المهاجر، واستغلاله فرصة الربيع العربي للبناء دون ترخيص، وابتعاده المفاجئ عن الحي ... لكنهم في نهاية كل حديث، كانوا يثنون على شخصه الهادئ الكتوم ... يذكرونه كلما مروا أمام بيته، فيتداولون سيرته باسم الغريب. وبعد شهور من الغياب زعم أحدهم أنه رآه ذات مساء في أحد الأحياء البعيدة يوزع منشورات تدعو الناس للتصويت على الدستور الجديد...

بعد هدوء العاصفة،تحركت دوريات قائد المقاطعة من أجل هدم البنايات العشوائية التي نبتت كالفطر خلال تلك الآونة ، فاستعصى عليها أن تطال البيوت المسكونة، فكان بيت الغريب الفارغ هدفا سهلا للجرافة المترددة...
انتظر الأهالي عودة الغريب، وانتظروا ردة فعله حين أتى، فلم يختلف حاله عن السابق: لم يكلف نفسه عناء السؤال، بل لملم ما تبقى من قطع متناثرة ورمى بها في ركن متبقي من أركان البيت المهدوم ثم انصرف. لكنه عاد بعد أيام ليقيم أركان البيت من جديد ، فتعاطفوا معه ليلا وساعدوا العمال الغرباء دون أن يعرفوا منهم شيئا... تجرأ أحدهم وطلب من الغريب أن يقيم بالبيت شهورا كي يتجنب جرافة الهدم،فبدا وكأنه يستجيب... ...
كانت مفاجأة الأهالي كبيرة جدا عندما ترشح الغريب لخوض غمار الانتخابات البرلمانية بعد المصادقة على الدستور، وأخذ يتجول بين الأحياء والأموات يتوسل بعض الأصوات. ولما لم يعد مطرب الحي يطرب، ولما شم الناس رائحة تغيير ممكن، أصبح الغريب نائبا محترما تظهر صورته عبر شاشة التلفاز... انتظروا أن يزور الغريب بيته يوما دون جدوى، وانتظروا أن تعود اليه جرافة القائد دون جدوى، فشاع بينهم أن الغريب كان يتاجر في العشوائيات منذ زمن بعيد...

الغرفة الملعونة

في غرفة شاحبة الطلاء والأضواء، تزورها الصراصير صباح مساء، مكتراة بثمن غال، هان قليلا باقتسام كلفته، وضاقت باقتسام أرجائها بين شبان ثلاثة. يتمدد كل منهم في اتجاه، تاركين فسحة ضئيلة إزاء بابها المكسور للموقد والأواني القليلة حيث يباشرون الطبخ بالتناوب... وإذ يلجون الغرفة المكدسة بخليط من ثياب وأواني وأوراق وكتب ودفاتر وأعقاب سجائر وقنن الليمونادا الفارغة وغيرها، لا يجرؤون بتاتا على تسمية أنفسهم بالطلبة الجامعيين. فقط يتذكرون ذلك حين يلبسون ثيابهم، ويمشطون شعر رؤوسهم، ويلقون آخر نظرة على وجوههم عبر مرآة مكسورة معلقة قرب الباب بطريقة غريبة، فيمسكون هواتفهم منصرفين وقد وصلوا آذانهم بسماعات تلهب خطواتهم بصخب الموسيقى المفضلة. كان عصام وأيوب طالبين في كلية العلوم بشعبة الفيزياء، بينما كان عادل طالبا في كلية الآداب بشعبة الأدب العربي، شغوفا بالشعر يحفظ منه الكثير، ويحلو له أن يردد أشعار المتنبي على أسماع الأصدقاء والزملاء والندماء بمناسبة وبغير مناسبة، فقد كان بذلك نقطة الضوء الوحيدة التي تنير الغرفة الملعونة، وتجعلها ذات بريق ومدى، حين يكسر بصوته الجهوري سكونها المقيت، أو يخرس قهقهات عصام وأيوب بقوله: " كفى لغطا أيها الفيزيائيون الكاسدون في فضاء لا مكان فيه للبحث العلمي... شنفوا أسماعكم وهذبوا أذواقكم على الأقل بكلام العباقرة من الشعراء، فيردد أبياتا يستهلها بهذا البيت الشهير:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

كان صوته القوي كافيا لشد أسماعهم لحظات، فقد باتوا يستمتعون بأشعار المتنبي، ويكتمون في أنفسهم الردود، ويخشون إن فعلوا أن يعاقبهم بالصدود.

وإذ أطال الإلقاء ذات مساء، قاطعه عصام بلباقة قائلا: ألا ترى أنك تغرد خارج السرب وتعيش زمنا غير زمانك، وأشعارا لم تعد تليق بعصرنا؟ فقد تغيرت أولويات عالمنا، حتى أصبح الأدب آخر الاهتمامات... رد عادل بهدوء الحانق المفتعل: عن أي اهتمامات تتحدث يا صديقي، ألا يكفيك أن يدرس الطلبة في جميع

التخصصات على امتداد ربع قرن أو يزيد، فيجدون أنفسهم خارج حسابات التشغيل. لقد جنح الناس صوب حسابات فارغة، خارج نطاق الأدب والأخلاق، فتساوت الرؤوس في ظلمة الآفاق. هل تعلم يا صديقي أنني أنشدت يوما في مظاهرة لمعاقين بصريا يطالبون بالشغل بيتا للمتنبي يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

فهلل المتظاهرون انتشاء وطربا، وماهي إلا دقائق حتى أشبعوا ضربا وركلا...

صمت عادل ثم انصرف، بينما تاهت مخيلة عصام وأيوب بين ظلام الغرفة وظلام الأفق...

الوجه الآخر

في صدر الخيمة الفسيحة ذاتَ عزاء، اقتعد "باعزوز" ذو السبعين عاما أو يزيد كرسيا، في جلسة تحيل على نخوة الزمن الجميل، وهو يجيل بصره بين الداخلين والخارجين، ويتفرس وجوه شبان مختلفين عما عهده من أبناء جيله: كانوا حليقي الرؤوس بأشكال غريبة ودهون وطلاءات تغطي وجوههم ورؤوسهم، وتلمع في أصابعهم الخواتم وفي أعناقهم السلاسل...

تحدث إلينا وهو يغمز من قناة الشبان قائلا: لقد كان من عادة القبائل في زماننا، كلما حلت أيام التشريق والأضاحي، أن يلاعبوا بعضهم البعض لعبة " الجلود" حيث يعمد شباب قبيلة ما، للهجوم المباغث على قبيلة أخرى، فيخطفون منهم جلود الأضاحي. وعادة ما يتم الهجوم على متن خيل أو بغال. ومتى تمكن المهاجمون من الفرار، أقاموا لذلك حفلات رقص وغناء، يتباهون بها إزاء القبيلة المنكوبة. فإن سقط أحد المهاجمين بيد الأهالي، فإن قواعد اللعبة تقتضي أن يجعلوا منه مثار نكبة واستهزاء للقبيلة الغائرة، إذ كانوا يلبسونه لباس النساء، ويغدقون عليه المساحيق من كحل وسواك وحناء، ويزفونه للقبيلة مثل عروس على ظهر بغلة عرجاء... وعادة ما تلاحقه تلك الشتيمة طول حياته...

لاحظ "باعزوز" تضايق الرداد الذي سبق أن وقع في قبضة قبيلة، فتحول من فارس مغوار إلى عروس ذات خلخال وسوار، فأخذ يهدئ من روعه قائلا: لا عليك أيها الرداد العزيز، فقد كان وجهك الآخر مجرد لعبة متعارف عليها... المشكلة يا جماعة، أن شبابا يجلسون أمامي دون أعرف اسم القبيلة التي غيرت ملامح وجوههم، وجعلت منهم رجالا بمساحيق النساء...

قال الرداد وقد أعاد له "باعزوز" جزءا من كرامته المسلوبة منذ زمن: هؤلاء يا " باعزوز" فئتان: فئة ركبت البحر على متن قوارب الموت في تحدٍّ للأعراف والمواثيق، فعادت بالدهون والمساحيق، وفئة شدها بريق الجلود عبر الشاشات على اختلافها، فغارت عليها القبائل من شتى الحدود، ثم باتت من غير جلود...

المستشفى والضريح

ضحكت مي زهرة، بائعة الخبز السمين، حتى كادت تستلقي على ظهرها، وهي تحكي للأخريات وسط الحمام قائلة: رحم الله ذلك الزمن الرخو، الذي كنا نستعين فيه على استخراج الأوساخ بالصابون البلدي، ونفك اشتباك الشعر بالغاسول و"مشطة القرن"، ونتداوى بالحلبة والصعتر والشانوج، وزيارة أضرحة أولياء الله الصالحين... يومها أخذت امباركة بنت الحراز ابنها المحموم إلى ضريح الولي الصالح، ومارست كل الطقوس المعهودة من قبل النساء، ثم عادت تحمل أتربة من محيط الضريح، تخلطها بالماء وتمسح بها جسم الصبي كلما ارتفعت حرارته. حدث أن أصابته غيبوبة عارضة، فأخذته على عجل إلى فقيه الجامع الذي حرر له تميمة، وأخبرها قائلا:" ضربوه المسلمين". وضعت التميمة بداخل قطعة قماش، وربطتها حول عنق الصبي بخيط صوفي مغزول، ثم راحت تحلب البقرة الدبساء لتسقيه من حليبها، لكن يد المنون سبقتها إلى الصبي...

تقاطرت أفواج النساء تعزين في وفاته، وتَلُمْن بنت الحراز على عدم أخذ ابنها لزيارة ضريح سيدي اسعيد، فهو المكلف بعلاج الحمى، أما سيدي بنور ففي بركته علاج آخر...

قالت سعاد، بائعة النعناع: ولِم تحكين يا مي زهرة عن زمن ولّى بسلبياته وايجابياته القليلة؟ إننا نعيش عصرا مختلفا.

ردت مي زهرة وهي تدير رأسها في استنكار ظاهر: بل قولي إننا نعيش نفس العصر، بأضرحة مختلفة في الزمان والشكل والمكان: لقد أصيب شاب من الفيلاج باختناق، فأسرع به أهله إلى المستشفى الإقليمي للمدينة، ولما حضر الطبيب، فعل ما استطاع ثم أخبرهم بضرورة نقله إلى مدينة الجديدة، فالمستشفى لايتوفر على أوكسجين في تلك اللحظة بسبب عطل ما، ولولا أن نقلوه على وجه السرعة للقي نفس مصير ابن امباركة بنت الحراز.

قالت سعاد: حقا إن هذا المستشفى لا يليق لمداواة كثير من الأمراض، بسبب نقص الآليات والمعدات اللازمة ونقص ذوي الاختصاص أيضا، ليس له من المستشفى الا الطول والعرض والزليج...

قالت مي زهرة: هل علمتن أن ابنة أخي أتوا بها في حالة مخاض من دوار اولاد احمد، فأرسلوها على وجه السرعة إلى الجديدة، ولحسن حظها وضعت ابنها قرب "براكة احسينة". فسمته " احسينة" تيمنا بصاحب البراكة الشهيرة.

ردت سعاد: إن كان ثمة فرق بين المستشفى الإقليمي وبين الضريح، فهو أن الأول يرسلك إلى العلاج في مكان آخر والثاني لايتكلم مع أحد، إن شفي زادت بركته، وان مات وجدت النساء الأعذار للولي الصالح...

غمغمت مي زهرة بعد أن سكبت عليها سطلا من الماء، والأخريات يتابعن أوساخها تدب في اتجاه المصرف كالديدان: لقد بدأت بعض الأوساخ تختفي بارتفاع درجة حرارة الحمام.

استطردت سعاد قائلة: لقد حكى لي أحدهم، والعهدة على الراوي، أن طبيبة مستوصف جماعة قروية لاتحضر إلا يوم السوق الأسبوعية...

ردت مي زهرة:" هذاك هو المرض بعينيه". المشكلة أن الوزارة السابقة قالت: إن الأطباء الجدد يرفضون العمل بعيدا عن المدن الكبرى حيث يزاوجون بين العمل في القطاعين العام والخاص.

تدخلت فاطمة مدافعة: أليس من حقهم تزويد دخولاتهم، فقد درسوا حتى شابوا...

ردت سعاد منفعلة: مالنا وللسياسة؟ أريد طبيبا والسلام.

ضحكت الأخريات، وقد فهمن من كلامها شيئا آخر، ثم قالت لها مي زهرة: لقد ارتفعت حرارة دماغك يا سعاد، وأخذتِ تهذين بكلام كبير، اغتسلي ثم التحقي ببيتك قبل فوات الأوان...

قامت سعاد غاضبة، وهمت بالانصراف على عجل، لكن قدمها وطأت قطعة صابون، فخرَّت متزحلقة ثم ساقطة ثم كسيحة، فأخذوها الى المستشفى على أمل العلاج...

قَتلوه!!!

رمى الجزار العربي بجراب اللحم المتبقي من سوق" خميس القصيبة" في شبكة العربة الخلفية، وأخذ مكانه، ثم شرع يحكي للركاب، على وقع حوافر الحصان قائلا:

في "رحبة البهايم" بأحد الأسواق، صاح أحدهم: "وا شفار آعباد الله" ، فانهالوا على اللص ضرباً باليمين وبالشمال، بالأكف والأرجل والهراوات، يتناوبون على توجيه اللكمات والركلات، حتى أرْدَوْهُ قتيلا، ثم ذابوا جميعهم وسط الزحام والغبار المتصاعد، واستحالت الساحة خلاءً إلا من جثة هامدة ملطخة بالدماء، يرمقها المارة من بعيد، فلا تكاد تتبين من هرج السوق إلا عبارةً واحدةً تتردد: "قتلوه " ...وتفرق دمه بين القبائل...

حوقل عباس متنهدا، لكن الجزار قاطعه مستطردا:

تَهَيَّبَ اللصوص أسواقاً عديدة، لايجرؤون على دخول "رحبة البهائم" في كل الأسواق. إذ شاع الخبر مدوياً، وشاهدوا بشاعة صور القتيل على صفحات الجرائد: فقد مات ذلك اللص ميتة كلب مسعور، بقَصاصٍ لم تُجِزْهُ قوانين الأرض ولا شرائع السماء، ولم تستسغه جمعيات حقوق الإنسان، ولا جمعيات الرفق بالحيوان...

قال صاحب العربة: نِعْمَ القَصاص هو، ذلك أدنى ألا يتجرأ آخرون على سرقة أموال الناس وأمتعتهم...أنا لا أوافقكم الرأي، ولا أوافق كل الذين ينعتون من فعلوا ذلك ب "بقر علال"... فذلك شأنكم وشأنهم.

قال الجزار: أغرب من ذلك أن يستغل الأمرَ بعضُ الأشرار للتخلص من أعدائهم والانتقام منهم، بأن يترصدوا دخولهم إلى "رحبة البهائم"، فينادوا في الناس: "واشفار آعباد الله" فيهلك الأبرياء كما هلك اللصوص...

قال خلدون: جلست يوما على سور" رحبة الأكباش" قبيل عيد الأضحى بسوق" الثلاث"، أترقب دخول أحد الموظفين ، فقد أخذ مني مبلغا من المال مقابل وثيقة

لم أحصل عليها، فوالله لو كنت رأيته ، لأمسكت بعنقه وصحت في الناس "واشفار آعباد الله"، فيقضي الله أمرا كان مفعولا(مطلقا) أو(نكرة مقصودة)...

ظل عباس واجماً، يتابع أحاديث الآخرين ثم راح يتخيل الجالسين على أسوار "رحبة الأكباش"، وكأنهم يترصدون دخول من سرقوا مالهم أو متاعهم أو شيئا غير ذلك:

فمن يترصد دخول تاجر باعه بضاعة رديئة بضعف الثمن...

ومن يترصد دخول معلم سرق أوقات تمدرس ابنائه، لايحضر الا لماما...

ومن يترصد دخول ممرض يبيع "دواء المخزن" للناس ويمنع عنهم الأقراص المهدئة للصداع، بل يماطلهم حتى في تسليم حقن الأنسولين...

ومن يترصد دخول سارق رمال" أولاد عمران" يبيعها بأغلى الأثمان للبنائين في الظلمات...

ومن يترصد دخول من قلص ميزانية تعبيد الطرقات المتآكلة حتى استحالت حفرا بلا عدد...

ومن يترصد دخول برلماني سرق صوته وتحول إلى ناطقٍ ينطق بما لم يَعِدْ به الناس..

ومن يترصد دخول ناهبي صناديق المال العام على اختلاف أنواعها وأوزانها وألوانها...

ومن يترصد دخول متحزب باع الوهم وسرق أحلام الناس...

ومن يترصد دخول نقابي سرق نضال الشغيلة بتسوية لاتناسبه إلا هو وأعوانه...

ومن ، ومن ، ومن...

استمر عباس يحدث نفسه متسائلا: ماذا لو دخل كل هؤلاء لاقتناء أكباش العيد، فتحولوا جميعهم إلى أكباش فداء؟؟؟

وصلت العربة الى" القرية" التابعة لمدينة سيدي بنور، فترجَّلَ الركاب يقصدون بيوتهم، بينما تسمر الجزار العربي بجانب صاحب العربة يسأله عن جراب اللحم الذي اختفى، دون أن يجد جوابا...

" لمقدم الشيبة "

ايــــــــــــــهٍ يا زمن السبعينيات والثمانينيات في مدينة الولي الصالح ...

استشاط القائد غضبا، أزبد وأرغى، فاحمرت وجنتاه حتى كاد أن يصفع "المقدم الشيبة"، ثم صاح في وجهه: اغرب عن وجهي، لن تتعلم أبدا... هرول "المقدم " نحو الباب ورجلاه تخبطان بعضهما خبط عشواء. ارتطمت إحداهما برجل المخزني الواقف وراءه، فخر ساقطا على الأرض. صاح القائد من جديد وقد أخذ مكانه على الكرسي، و دار دورتين كاملتين قبل أن يستقر وجهه في وجه "المقدم الشيبة": كيف تجرؤ أيها المعتوه على عدم إخباري بوقفة احتجاجية كتلك؟ كم مرة قلت لك ولأمثالك أن تخبرني بكل صغيرة وكبيرة؟ تلعثم لمقدم الشيبة مجيبا: كان عددهم قليلا، جاؤوا إلى المركز الفلاحي من قبيلة فطناسة وقبيلة أولاد جابر وقبيلة أولاد بوزرارة الجنوبية، وقد تفرقوا بعد أن تحدث إليهم الرايس العربي. قاطعه القائد مستنكرا: أنا لا أعرف لا الرايس العربي ولا الرايس قدور، قل لي كم كان عددهم؟ رد لمقدم: مائة شخص فقط. نهض القائد من مكانه هائجا وهو يقول: مائة شخص فقط ياأبله؟ ومن ثلاث قبائل أيضا؟ مائة شخص لو جاؤوا إلى القيادة لأخرجوني من مكتبي هذا. وماذا كانوا يريدون؟ أجاب الشيبة: كانوا يرغبون في الحصول على شتلات الزيتون والزيزفون.

أمره القائد بالانصراف محذرا إياه من مغبة تكرار مافعل...

خرج" لمقدم الشيبة" يقرص ثنايا بطنه بكلتا يديه مولولا: "دارتها لي كرشي الكافرة بالله"

كيف أطعت الرايس العربي إذ أقنعني ألا أخبر القائد؟ لقد طعنني بوجبة عشاء ثقيلة ذات لحم وإدامٍ. هَمّهُ دوماً أن يُظهر للقائد مدى قدرته على احتواء أهل القبيلة. كان ذلك دأبُ غالبية " الرِّيّاس" (أعضاء المكاتب الجماعية) في ذلك الزمن القريب البعيد: يعتقدون بعد نجاحهم في الانتخابات أنهم أصبحوا جزءا من السلطة الحاكمة، فيحيدون عن الدور الذي انتخبهم الناس من أجله، ألا وهو الدفاع عنهم وتلبية مطالبهم، والعمل على تنمية دائرتهم، ويتقربون من رجال السلطة...

مشى" لمقدم الشيبة" يكلم نفسه في ندم غير مسبوق، على خطإ غير موثوق، فإذا بصديقه حيمود،" بائع صيكوك" ، يناديه قائلا: "وآآآ لمقدم" تعال هدئ من روعك، خذ هذه الزليفة تبرد بها دمك الفائر. رد" لمقدم الشيبة" وقد تبدل لون وجهه : لن أشرب من عندك ولا من عند غيرك، فهل حصل لي ما حصل إلا بسبب شراهتي ونهمي وكبر معدتي؟؟؟ ثم جلس يقص عليه ما حدث...

طفق حيمود يرش عليه من ماء القنينة البارد، عله يسترجع بعض هدوئه في ذلك اليوم القائظ، ثم بدأ يتحدث إلى صديقه محاولا تطييب خاطره ورفع معنوياته:

كيف يغريك الرايس العربي ويثنيك عن القيام بواجبك وأنت صاحب تجربة ومراس؟ انك تمتلك سلطة لايمتلكها غيرك، فأنت تشهد على حياة الناس ومماتهم، على غناهم وفقرهم: من سلمتَ شهادة حياته فهو حي وان كان ميتا، ومن لم تسلمها فهو ميت في نظر(المخزن) حتى (تحييه)، ومن سلّمتَ أهله شهادة وفاته فقد توفى وان كان حيا يرزق، ومن لم تسلم أهله شهادة وفاته فهو حي في نظر" المخزن" حتى تسلمهم إياها... ومن أعطيته شهادة الاحتياج فهو فقير في نظر" المخزن" وان كان غنيا، ومن لم تسلمه إياها فهو غني وان كان لايملك شيئا...

ثم انك تكثر من الحسنات: فكم واحد أنقذته من أداء مبلغ كبير لصندوق المستشفى بشهادة الاحتياج مقابل ورقة واحدة لاتسمن ولاتغني من جوع...وكم أغمضت عينيك بالنهار كي لا ترى مابني بالليل... وكم وكم وكم...

بدا" لمقدم الشيبة" وكأنه لايسمع شيئا مما يقوله صاحبه، أعاد عمامته على رأسه ثم عاد إلى بيته ثقيل الوطء، تدور حوله الأرض دوران كرسي القائد، فلبث مريضا لايبرح فراشه أياما معدودات. ولما سمع حيمود بمرضه، راح يزوره صحبة زوجته، فجلس قبالته يردد كلمات المواساة المستهلكة منذ قرون. تكلم" لمقدم الشيبة" بصعوبة بالغة فقال: أقسم بالله لو شفيت ، أنني لن آكل طعام الرايس العربي، ولن أقبض فلسا من أحد.

قال حيمود: لقد كانت المرة الأولى التي رأيت فيها" لمقدم الشيبة" يَبَرّ بقسمه، فقد مات من ليلته تلك.

أسرع "المخزني" مهرولا يخبر القائد بوفاة "لمقدم الشيبة". لم يتمالك القائد نفسه فبكى حزنا على فراقه، وربما ندما على قسوة آخر لقاء له مع الفقيد.

قال فقيه الجامع وهو يعيد مبلغ خمسين درهما إلى ولد الهاشمية، وصيةً من المرحوم: لقد تاب" لمقدم الشيبة" توبة مقبولة إن شاء الله، فقد نطق بالشهادتين قبل أن يسلم الروح لبارئها. فاللهم إن كان محسنا فزد في إحسانه وان كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته، اللهم اغفر لنا وله و لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . آمين.

قْبَرْ وْلْدْ النصراني

بينما كنا جلوسا عند "با التهامي" ذي المائة عام أو يزيد، حكى لنا (والعهدة عليه) بنبرته الودودة قائلا:

تداعت ساكنة مركز سيدي بنور، على قلتها آنذاك، من كل مكان، تتبين مصدر ذلك الصراخ الغريب المنذر بحدوث أمر جَلَل. لقد كان نواحا منفردا يُحيل على موت محقق. لمح الجميع "طامو البراحة" تقطع المكان ذهابا وجيئة، بيدين تمسكان بعضهما من الخلف، وهي تبكي بحرقة المكلومة على فراق قريب. واستغرب الجميع تصرفها بعدما علموا أن الميت لم يكن سوى ابن أحد المعمرين المقيمين بالمركز، منذ بداية عهد الحماية. كان أول من مات من النصارى بعد دخولهم بلدة الولي الصالح. تساءل الناس عن علاقة "طامو البراحة" بأهل الميت، وكادت النساء تتهمنها بالخيانة لولا أنها كانت ترد باكية: "نْصْراني غْريبْ وْما عندو حْبيبْ يْبْكي عْليه، هذاكْ غا صَبي ما يْعْرَفْ لا استعمار ولا سيدي بّيهْ"...

فيما تهامس الحاضرون يستفسرون بعضهم عن كيفية التعامل مع هذا الحدث الغريب: أيُعَزّون أباه وأمه كما يعزون بعضهم البعض؟ أيهيئون قدور الكسكس لآهل الميت كما دأبوا على ذلك؟ أَيَذَرون "طامو البراحة" تستعرض طقوس بدعة الشق والنياحة المعروفة وقتها؟

وبينما أسرع والد الميت إلى مركز البريد، يُجري اتصالاته عبر الهاتف الثابت ذي السماعة المعزولة، تساءل آخرون عن طريقة غسل الميت وتكفينه وعن مكان دفنه في دهشة وذهول...

فبين قائل بأن الكلمة الفصل لفقيه الجامع (الكتاب)، وبين متحدث عن نقل الميت إلى بلده الأصلي، وبين قائل بوجود مقابر النصارى في الدار البيضاء، وإمكانية دفنه بها...

كل ما فعله الحاضرون أنهم تسمروا أمام باب منزل "النصراني"(أي الفرنساوي)، وباتوا يترقبون عودة الأب ، وتوافد بعض سيارات المعمرين... وبعد ساعات تأكد للجميع أن الأم تمسكت بضرورة دفن ابنها بالقرب من مسكنها،

وأن الطفل الصغير سيكون أول دفين من النصارى بهذه البلدة الصغيرة. ثم راح الناس ينعتون رمسه ب"قبر ولد النصراني" رغم أن المكان تحول إلى مقبرة ضمت عددا من موتى النصارى بعد ذلك.

مرت السنوات، ورحل النصارى تاركين كنيسة بنيت على أنقاضها قاعة أفراح، ومقبرة بنيت على اختفائها مساكن عشوائية ... ولم تعد للقبر نفس الدلالة التي عهدها الأولون، بل أصبح السامعون لعبارة:"قبر ولد النصراني" يفهمون أنها تدل على حي صفيحي شهير، عَمّرَ طويلا قبل أن تطاله جرافات شركات العقار في إطار ماسمي ب " مدن بدون صفيح"...

انتقل كل من تمكن من إبرام عقد شراكة لبناء مسكنه، وتأخر "با عبد الله" قليلا لأسباب إدارية يطول شرحها، وبقيت "براكته معزولة هناك، فسماها جيرانه السابقون مزاحا ب"قبر ولد النصراني"...

رحم الله "طامو البراحة" فقد عهدها الناس تبكي وتنوح في كل المآتم بلا استثناء، ورحم الله "با عبد الله" الذي كان يقول بعد أن سكن المنزل السفلي في صفقة مغبونة مع "مول الشكارة" المستحوذ على باقي الطوابق: "لقد انتقلنا من قبر إلى قبر..." (يقصد من قبر ولد النصراني إلى شقته السفلية الضيقة...)

وختم "با التهامي" كلامه قائلا: سيمتلئ "قبر ولد النصراني" بمرور الزمن عمارات ومساكن وغيرها، وتتحول ملامح المكان، دون أن يتحول هذا المُسَمّى في الأذهان، تماما كما بقيت مُسَمّياتُ "السوق القديم" و "أرض عمور" و"دوار الحاكم" وغيرها راسخة رائجة رغم المسميات الجديدة...

لوحة إشهار

في قاعة الانتظار الطويل عند طبيب الاسنان، جلس الغوتي حوفار بين الحاضرين، قادما من براكة تيسي، وهو يضع يده اليسرى على فكه السفلي المنتفخ، يتجاذبه الم ضرسه المسوسة حينا، ودردشات الحاضرات من النساء حينا آخر. استغرب حضورهن بتلك الأناقة والبشاشة، فقد ظن على الدوام أن طبيب الأسنان لايزوره الا من أرقه ألم الأضراس، فيأتي متجهما وجلا يبتغي التخلص منها على عجل. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها عيادة من هذا النوع، فقد ألف نزع أضراسه وأضراس ذويه بخيام سوق" الثلاث"، عند نازعي الأضراس بلا تخدير، حيث يجلس القرفصاء على حصير، فيبادره صاحب الكلاب الكبير دون شفقة أو تأخير، فيصيح ألما صيحة تذوب بين زعيق الأبواق المتضاربة...

تحدثت رباب الى الأخريات، وحلقات تفويم الأسنان تلمع بين شفتيها قائلة: تنقصني دفعة واحدة كي أفي بالمبلغ المطلوب، وقد أخبرني الطبيب أن هذه الحصة هي الأخيرة في عملية التقويم.

سألتها منال: وكم كلفك ذلك؟

ردت رباب:" مليون وستين"

لم يتمالك الغوتي حوفار نفسه لسماع المبلغ فكرره مندهشا:" مليون وستين"؟؟؟ لو...لو اشتريت لي بقرة أو بقرتين في الموسم الماضي، لكنا نتوفر اليوم على أربع بقرات، ولتحولت فيما بعد الى سبع سمان بقدرة الوارث الديان...

أجابت رباب ساخرة: حتى اذا حل الجفاف، أكلتها العجاف، وبقيت أسنان رباب على خلاف.

ضحكت الحاضرات بصوت عال أثار أعصاب الطبيب الذي فتح الباب يتفحص وجوههن دون أن ينبس ببنت شفة، وكأنهن به يتوعدهن بقسوة العلاج فور الدخول... لكن سعيدة أصرت على استثارة الغوتي حوفار بالقول: أما أنا فقد طلب مني الطبيب مبلغ "مليون ونصف" فكم يوازي المبلغ من بقرة يا سيدي؟

رد الغوتي حوفار: لو تقبلين سلمتك أسناني وأضراسي، فليس لدي ما آكله بها، سأكتفي بالحساء والشاي وكسكس الولائم، غير أني لاأستطيع التفريط في الأنياب.

قالت منال: وماجدوى الأنياب في فم بلا أضراس ولا أسنان؟

أجاب حوفار: انها تصطك فيما بينها لتخفف عن أعصابي صدمة الهيجان لسماع تفاهات آخر الزمان. ماهذا؟ لقد تحول نزع الأضراس من "باروك" يضعه صانع الأسنان في جيبه دون النظر اليه، الى واجب محدد بعشرات الأضعاف، واستحال ثمن البقعة الأرضية رقما لايطاله الا ذوو الأرصدة ذات الأصفار العديدة عن اليمين، وتحول ثمن الحلاقة في الخيام بدرهم رمزي الى مبلغ يتفاوت حسب مظهر الصالون ونوع الجبس والرخام والزليج والمرايا، وتعددت أثمنة ولوج التمدرس الخاص حسب أشكال البنايات وألوانها، وأثمنة الخبز حسب موقع المخبزة وشكلها لاحسب جودة الدقيق والإعداد.

أكلّ هذا وغيره كثير، بسبب لوحة اشهار؟؟؟

قالت رباب: مسكين، لايستطيع مواكبة التطور...

همّ حوفار بالانصراف غاضبا يقول: تطور أم تقهقر؟ ان التطور يجلب الرخاء والدعة للناس، أما ما حصل فقد أثقل كواهل الناس، وجعل الحياة عسرا بعد عسر، فعن أي تطور تتحدثين؟ لقد عشنا زمنا لاتكلف فيه ولا ازدراء، صدقوني، هذه ليست سيدي بنور التي أعرفها. ثم انصرف.

تبادلت الحاضرات بنات العيون، وقد شوش أذهانهن منطق الغوتي حوفار، وصمتن برهة قبل أن تكسر الممرضة صمتا ثقيلا جثم على القاعة، وهي تنادي على رباب، فقد جاء دورها في آخر حصة لتقويم اعوجاج الأذهان عفوا الأسنان...

استغلال النفوذ

تعلقت قلوب الناس منذ زمن، في بلدة الولي الصالح، بحفظة كتاب الله، فلقبوهم بالفقهاء، واعتبروهم أهل الله وخاصته، فأكرموا وفادتهم في كل مناسبة، وأحسنوا الاكرام كلما حلوا جماعة في "الدّوْر" الذي كان يقام مرة في كل عام... لكن قلوب الفقهاء، كما يزعم عباس وأمثاله، تعلقت بالولائم، فباتوا يحرصون عليها في الأفراح والأتراح، ويغتنمون سويعاتها في الأكل والشرب وجمع ما تيسر من دراهم، لقاءَ دعوات يجتهدون في استحضارها على قدر عطايا الحاضرين...

يتأسف الفقيه سي عبد الرحمان على تناقص حدة العشق من الناس، وندرة الولائم، مع تزايد المنافسة من قبل فرق الأمداح ووعاظ الجماعات في المناسبات...
جحظت عيناه في اناء اللحم المزين بالبرقوق المرشوش بالزنجلان، التفت يمينا وشمالا يتفرس وجوه وأجساد المتحلقين حول مائدته، فنطق بالحمد لله على نحافة أجسامهم، ثم سمى الله جهرا وايذانا بافتتاح جلسة الطعام.

لكن حمان لم يكترث للبداية، وظل يمسك بيده تلك الشكاية التي بعث بها لوزير العدل ، يتظلم من موظف مسؤول، استغل نفوذه للاستيلاء على قطعته الأرضية بدوار "لمريشات"... كان يتحدث الى جاره في المجلس "مصطفى الخياط" مشيرا الى تاريخ المراسلة البعيد، بلهجة اليائس من جواب الوزير. ألقى سي عبد الرحمان نظرة خاطفة على الرسالة، فقرأ توا على مسامع الجميع: " الموضوع: استغلال النقود" بدل "استغلال النفوذ" ، فالفقهاء يقرأون القاف بنقطة واحدة. ثم قال : الجميع في هذه الأرض السعيدة يستغل النقود لقضاء أغراضه، فهلا رميت آسي حمان بتلك الورقة، واستفدت من دهون هذا الطعام الدسم، قبل فوات الأوان...

قال حمان: من العيب آسي عبد الرحمان ألا تفرق بين النفوذ والنقود، فهذا المسؤول استقوى علي بنفوذه ومعارفه كما استقوى على آخرين بالمدينة، فأرغمهم على أن يبيعوه بما ارتضاه من أثمنة. وقد كان يسجلها باسم أخيه مخافة أن تحوم حوله شكوك "الرقابة" .

رد سي عبد الرحمان: هداك الله أسي حمان، فهناك أشخاص لا منصب لهم، ولكنهم يحكمون قبضتهم على أصحاب المناصب بما يمتلكون من مال، وبذلك لاتستطيع التفريق بين النفوذ والنقود...

تدخل مصطفى الخياط قائلا: اذا كان قد استغل نفوذه كما تقولون فان أخاه قد استغل ثقته فيه فباع كل ذلك لزوجته بيعا لارجعة فيه، وافتعلا خصاما بينهما، فلم يظفر المسؤول بشيء، وهكذا" فلوس اللبن داهم زعطوط"...

قال سي عبد الرحمان: الناس في مدينة الولي الصالح كرماء مع المخزن، يعشقون العطاء حد السخاء، وبذلك لايحتاج المسؤول استغلال نفوذه كي يجمع المال، فقد شبهت المدينة ونواحيها يوما ب"الكويت" ذات الآبار المليئة بالذهب الأسود، فما ذنب الموظف اذا كان الناس يعطون لغرض أو لعدمه؟؟؟

قال مصطفى الخياط: ان الناس هنا اذا كان "العام زين" تعاطوا للشيخات والمنكرات، وتناسوا المساكين والفقهاء، فخير للنقود أن تذهب الى جيوب الآخرين...

استزاد سي عبد الرحمان من مشروب "الليمونادا" الحمراء، ثم نظر في وجه حمان الذي شرع متأخرا في الأكل قائلا: والله انها علامة أخرى من علامات الساعة، أصبح حمان يراسل الوزراء، ويناقش الفقهاء في النفوذ والنقود...

" التاجر قوتيل"

تَخَيّرَ أخصب الأراضي وأوفرها غلالا ومحاصيل، واتخذها مزارع ذاتَ حصون وهمية، تعارف الناس على حرمتها، فباتوا يتهيّبون الاقتراب منها، مخافة الذعائر الجزافية التي يفرضها التاجر"قوتيل"، صاحب اليد الطّولى في منطقةٍ امتدت عبر تراب "فطناسة" وغيرها، فقد كان وثيق الصلة بالحاكم الفرنسي المقيم بمركز سيدي بنور آنذاك... تنوعت منتجاته الفلاحية المجنية بعرق الفلاحين،على طريقة "التويزة" بين حبوب وقطاني وعنب وتين، وبين رؤوس أبقار وأغنام وأفراس وجمال، وبين دواجن من دجاج وحمائم وبطط... ليس للفلاحين في ذلك نصيب من نصاب، بل أمر كالقضاء لا يُصد ولا يُرد، إن شاء جاد وان لم يشأ ذهبوا يجرّون أذيال القهر، وروائحُ العرق تُزكم أنوفهم،يئنون من شدة الإعياء. كان يجمع المحاصيل بسطوة حامية، فيرسلها بحراً لترسو هناك في مراسي "الحُماة"، فطاب له بذلك أن يسمي نفسه تاجراً بدل فلاح... عرفه الناس ذا ثروة كبيرة ، حل بين ظهرانيهم ذات خريف، يتحدث لغتهم ويجالس كبراءهم، ويناقش فقهاءهم في أمور الدين والدنيا، حتى زعم البعض إسلامه ، فقد كان يحفظ كثيرا من الآيات القرآنية، يستدل بها في أحاديثه، فيعمد إلى تعجيز الفقهاء من حفظة القرآن بأسئلة تُدخل الريبة في قلوبهم، وتشتت أذهانهم، حتى إذا تركوه استعاذوا بالله من شر ماسمعوا...

لم تختلف أحاسيس الناس بالقهر عند اشتغالهم بحقولهم الصغيرة الخاصة عن أحاسيسهم وهم يشتغلون في مزرعة التاجر "قوتيل".فقد كانوا يضطرون لدفع ماجنوه بها، ضرائبَ وغرامات مفروضة. بل إن ذلك القهر كان يبلغ درجة عالية، وهم يعانون مزاجية التاجر في تحديد مبلغ الغرامات التي كان يفرضها على كل من سولت له نفسه الغفلة عن مواشيه، فتركها تجتاز الحدود الوهمية لمزرعته.

حكى لنا "الفقيه سي العوني" رحمة الله عليه" فقال:

دخلت على التاجر مدعواً إليه ، وفي حضرته الفقيه سي عياد، فظننت أنه جمع الفقهاء إكراما وصدقة، فلطالما تغنى أمامهم بحب حملة القرآن. لكنه بادرني قبل الجلوس بسؤال استعجل إجابته، فقد كان ينوي استقبال الواقفين قبالة الباب الكبير:

"أخْبِرْنا يا فقيه، هل تُكتب كلمة صوف بالسين أم بالصاد؟" ، فلما أجبتُ أنها تُكتب بالصاد، التفتَ إلى سي عياد وقال له متهكما: "سأعطيك بعض الصوف حين تصبح قادرا على تحرير رسالة بدون أخطاء." انصرف سي عياد دون جواب. ثم أمر "قوتيل" حراسه بإدخال "الغوتي كبور" الذي غفل عن بهائمه، فاقتحمت جانبا من مزرعة التاجر، واقتادها الحراس إلى المحجز .

أمر أحد حراسه بتحرير المحضر على مرأى ومسمع من الحضور، وأخذ يملي عليه مايلي:" قبضنا، نحن التاجر قوتيل، قبضاً مُعاينةً ، مبلغ خمس فرنكات،من السيد الغوتي كبور، غرامةً عن دخول دوابه إلى مزرعتنا، وتسببها في إتلاف المحاصيل، وقررنا الإفراج عنها بعد تسلم المبلغ المذكور"... ثم أمر الغوتي بدفع ماعليه فورا، فأخذه باليد اليسرى، وسلمه باليمنى للحارس الذي قام بحجز البهائم الباغية، مكافأة له على خدمته ، وتحفيزاً له على عدم التساهل مع الآخرين. إذ لم يكن الحراس يتسامحون مع أحد، لعلمهم أن الغرامات ستكون من نصيبهم، وتلك حكمة ماكرة...

قلت للسي العوني: إن مزاجية التاجر "قوتيل" في تحديد الغرامات لاتختلف كثيرا عما يجري بمصلحة الضرائب والجبايات إلى يومنا هذا: يبعثون إشعارا بأداء مبلغ معين، كضريبة على ملك أو عملية ما، فيتحول المبلغ بعد أخذ ورد ونحو ذلك إلى نصفه أو ثلثه، بدعوى أن القانون يسمح للمسؤول بالتقدير والتقرير، والتبديل والتغيير، وهكذا تتفاوت الأداءات بتفاوت الأشخاص والمسؤولين، ويتسع هامش التفاوت باتساع الدائرة الفضفاضة لقوانين الضرائب والجبايات...

رد سي العوني: فعلا انك تجد شخصين يؤديان مبلغين متباينين عن ضريبة عقار بنفس المواصفات والاستعمالات وغيرها...

قلت: ربما لا نفقه فلسفة الضرائب والجبايات، ولا طريقة احتسابها واستيفائها...

رد سي العوني: قد لا نفقه ذلك، ولكننا نؤدي من جيوبنا، ونرى بعيوننا ذلك التفاوت والتهرب الجبان، وندرك بفهمنا المتواضع أن الاختلاف بين حراس التاجر "قوتيل" وهم يحرصون على أداء واجبهم حبا في الغرامات العائدة إلى جيوبهم، وحراس الضرائب وهم يزيدون وينقصون ويضربون ويقسمون، حرصا على مايعود إلى جيوبهم، يكاد يكون ضئيلا...

انطلقت الشرارة الأولى للمقاومة، وتكاثفت الاتصالات بين رجال المقاومة في كل المدن والقرى، فنزلت التحذيرات من التعامل مع" التاجر قوتيل " على مسامع الناس كالصاعقة، وانتشرت بينهم انتشار النار في الهشيم: لقد كان "قوتيل"عين الاستعمار على المنطقة، وصوته الذي يُسكت العوام ويربك الفقهاء، وحَصّالته التي تجمع خيرات البلاد لترسلها برا وبحرا ، شأن العديد من أمثاله في باقي المناطق... اندهش الناس من تلك التحذيرات دون استبعادها، لكنها نزلت متأخرة...جداً.

فمالبث التاجر "قوتيل" يحتاط في حله وترحاله وتعاملاته، إلى أن مات متحسرا على أراض شاسعة، تركها في عهدة ولده الوحيد العربيد، الذي باعها شبرا شبرا، بأثمنة زهيدة كان أرخَصَها ثمن قنينة خمرة...

قلعة كراندو المهجورة

أضحى"قويسم الماحية" يتحاشى الحديث عن الماضي، لقد تصلبت عضلات قفاه ،فأصبح عاجزا عن الالتفات الى الوراء. أصر "سعدون الجراري" على أخذه في جولة بضواحي مدينة سيدي بنور على متن سيارته الصغيرة، فمالبث أن تكلم قائلا:

كان"مسيو روني" ابن "مدام موريس" شديد الولع بالقنص ، يطارد طيور الحجل البري، وطيور السمان وسط غابات "الكنتور"... فلطالما أجهدت نفسي في مواكبة جولاته ابتغاء ليلة قوامها عشاء بلحم الحجل، واحتساء خمرة ترمي بنا في غياهب النوم الثقيل..كان روني يفضل خمرة مقهى "مدام لولو" القريبة من سوق "بوشان"، على خمرة مقهى والدته، فقد كان يجد في السفر اليها لذة تُعادل أو تفوق خرجات الصيد المثيرة: يركب سيارة "الكات شوفو" وأنا بجواره، ثم يلقي بنظرة خاطفة على الصليب المرسوم بباب الكنيسة بسيدي بنور، قبل أن يغادر باتجاه المقهى، فالمقاهي ذات جاذبية خاصة، لايشعر مرتادوها المدمنون الا وقد سحبوا كرسيا الى الوراء، ثم اقتعدوه على عجل. اجتهد روني طويلا كي يجد لنفسه لغة تواصل دارجة مع الناس، فقد تعلقت نفسه بجلسات النزلاء من المسافرين عبر طريق مراكش، وطقوس اقامتهم في كل من "نْزالْة بلحيحي" ونزالة الحميري" وغيرها... يحرص على ارتيادها ذهابا، ويتفادى النزول بها ايابا مخافة نفورهم من رائحته، فيفقدَ بذلك لذة الجلسات والأحاديث المتنوعة بتنوع الزوار والنزلاء. حتى اذا عاد، ركَنَ الى مقهى والدته، لايشرب من خمرتها شيئا، فقد استقى كفايته من بئر "مدام لولو" العميقة...

تساءل سعدون الجراري عن طبيعة القنن التي كانت تحوي الخمرة آنذاك ، وهو يرى عند المدخل الجنوبي لمدينة الولي الصالح أناسا يسكنون المدينة، ويستقون الماء من بئر "العطاطرة"، فقد عافوا مياه الصنابير ذات اللون والطعم والرائحة، فبات أغنياؤهم يشربون المياه المعدنية المعلبة، وفقراؤهم يشربون ما يستقون...

تغاضى "قويسم" عن الاجابة بدعوة مرافقه للوقوف على بئر ذاق عذوبة مائها منذ زمن ، ماء عز نظيره في الزمن الخالي.

قال سعدون: عن أية بئر تتحدث يا سي "قاسم"؟

أجاب قويسم: لطالما صعدنا معا ، أنا و"مسيو روني" على قمة جبل "فطناسة" ومددنا بصرنا عبر سهل "الرحامنة" في اتجاه مراكش، فتراءى لنا موقع "قلعة كراندو المهجورة" يتحدر منها وادي كراندو، شاقا سبيله وسط ذلك السهل الفسيح. ثم انطلقنا صوبها، نتفيأ ظلال أشجار باقيات، " روني" يشير الى أطلال سور مربع، مبني بالتابية أو التراب المدكوك على أنقاض القلعة المهجورة، وبقايا ثقوب لأعمدة الدعامات ، والى بئر أحكم بناء جنباتها، يشبهها الرحالة بالمسقيات والآبار البرتغالية، بل ينسبون بناء القلعة كلها الى البرتغاليين ، بينما يحاول روني انكار ذلك جاهدا في جلسات "النزالات"...رغم أن أحدهم أسكته يوما بوثيقة تاريخية برتغالية تعود الى القرن السادس عشر الميلادي، وفيها اشارة الى "قلعة كراندو المهجورة"...

اقتربت سيارة سعدون من موقع "كراندو" فاستوقفته علامة تدعوه لتخفيف السير: فقد كان ثمة دركيان قبيل المنعرج. قال سعدون مازحا: سأستدعي الدركي ليفتح لك محضرا للتحقق مما حكيت لي عن "كراندو" ...(حْصَلْتِ آ قويسم).

رد قويسم: ان التحقق من الأحداث التاريخية ليس من شأن رجال الدرك، فقد أهمل المؤرخون والمحققون مثل هذه المعالم المعزولة حتى بات الناس يتنافسون في ابتداع روايات خرافية لأصل التسمية، فسمعنا يوما أن أصلها يعود الى زمن مقاومة الاستعمار الفرنسي،اذ كان المعمرون يتخذون من المكان مخفر استنطاق، فيأمرون المتهم بالاقرار قبل الشروع في ضربه، فيعدون لتنبيه المتهم مرة فمرتين باللغة الفرنسية قائلين:(كْرٌ...آهْ...دو...) ومن تم جاءت تسمية كراندو...وما الى ذلك من كلام...

قال سعدون بعدما تخطى حاجز الدركيين وهو يعاين أطلال "كراندو": فعلا ، يستحق هذا المكان أن يكون موضع تحقيق واستنطاق ...أو موضع ترميم قد يفيد سياحة الاقليم...

ثم أكملا طريقهما باتجاه بوشان ، اذ رفض قويسم أن يعود الى سيدي بنور قبل أن يلقي نظرة وداع على مقهى "مدام لولو". صمت أمامها برهة يتأمل بقايا ذلك الزمن الرخو العنيد في آن واحد، فأجهش بالبكاء قبل أن يقفل عائدا مستغفرا...

الْكَمَّاشَة

دخل "جوطية " سيدي بنور من بابها الخلفي كعادته، فقد ابتلي بأمرين لم يستطع لتركهما سبيلا أو بديلا: خطوط "النفحة "التي يسطرها على ظهر يديه، يستنشقها بشراهة الملهوف، وجولان "الجوطية" لسبب ولغير سبب... كان عيرود يحتاط عند دخولها من شراء أشياء وأشلاء عديدة، تبدو له، تحت حرارة الشمس، في أحسن حال، حتى اذا بسطها أمام نظرات زوجته الرعناء، تأففت منها ، فيرمي بها في ركن من أركان مرآب مملوء بالقش والمتلاشيات. وكم كانت ترتعد فرائصه وهو يهم بإخراج كبش العيد من السوق مخافة أن يتكرر معه أمر مشتريات "الجوطية".

استوقفه مشهد نساء ملثمات على شاكلة " الشّمَنْدْرِيَات"، كن يمسكن بخيوط مشدودة الى أبواق ذات مغناطيس،يسحبنها على أرضية السوق، فيلتقطن كل ما يَعْلَقُ بها من حديد ونحوه ، ويعمدن الى بيعه والاستفادة من ثمنه. حدَّث نفسه بسخافة هذا السعي الرخيص، لكنه آثَرَ مساءلة احداهن، وهي تراقب عمل "الكماشة" اذْ تُرخي بأسنانها على شاكلة سيقان العنكبوت، فتلتقط أجزاء الحديد والبلاستيك والقصدير وكل ما يقع تحت مخالبها، ثم ترمي به في حاوية الشاحنة الكبيرة.

سألها عيرود عن سخافة المسعى وعن سر هذا التيه في مشاهدة عمل الكماشة فقالت:

لكل واحد في هذه البلاد كماشته، وكماشتي المغناطيسية لاتؤذي أحدا، ولا تسرق متاع أحد من الباعة، بل تلتقط فتات الفتات، ومع ذلك تراهم يتأففون عند رؤيتنا...

استظرف عيرود هذا الرد الذكي من امرأة ملثمة، تتحدث بثقة وهدوء، وتجاهر جشع الكماشات الصلبة بقناعة نادرة...ثم أضاف موافقا: ان عيون أصحاب كماشة الحديد والمتلاشيات تعتبر ما تلتقطه النساء أمثالك من متاعهم، ولولا أن يقال عنهم مستحوذون لسألوا نعجتك الى نعاجهم، وحديدك الى حديدهم...

ردت المرأة الملثمة:لقد سألوا أكثر من ذلك، ان شهية التملك لدى هؤلاء تلتهم الحديد والصديد، الفجاج والنعاج، الحجر والبشر...

تزايد انبهار عيرود بتلك الردود، وأصر على مواصلة الحوار مع امرأة ملثمة كان يظن في أحسن الأحوال أنها ستجيبه بكلمات متقطعة أو أدنى من ذلك بكثير، فبادرها قائلا: ان امرأة تكافح من أجل لقمة عيشها باصرار وشموخ وتتحدث بهذا العمق والطلاقة، لاتخفي وجهها ولو كانت أمام كماشة تقضم الحديد قضما...

أجابت المرأة الملثمة: لقد اتخذت من اللثام لجاما، ولولا أن سألتني مانطقت أبدا.

كل ما أتمنى أن تتسع فجوات أنياب الكماشات حتى ينفلت من بينها فتات الحديد، فأظفر منه بنصيب يسد رمق اليتامى، فاني أرملة تنوء بأحمال ثقال، والناس بين ذئاب تسرح في أرذل خيال، وبين ثيران تلتهم الأخضر واليابس، لايهمها الجائع والعابس...

أطلق عيرود ساقيه لريح الجوطية، بعدما رأى سائق الكماشة يترجل متجها صوب الملثمات، ويوجه اليهن أبخس النعوت، طالبا منهن الابتعاد عن المكان، والا فسوف يعلّق احداهن على أطراف كماشته، فَدِيَتُها وَدِيَةُ أمثالها في "شكارته" و" الحبس للشجعان"...

التفت عيرود بعد مسافة يسيرة، فرأى جمْعَ الملثمات يبتعد عن الكماشة قليلا، تماما كما تبتعد أسراب الضباع من الفريسة، وعينها على تُخمةٍ تصيب الأسود بغفوة نعاس، وتسمح لها بسد الخصاص...

صدمة قوية

كرم الله وجهك يا علي بن أبي طالب، فقد ثبت في الأثر أنك لم تسجد في حياتك لصنم قط..

و سامحك الله يا علال، يا زارع الشمندر السكري بضواحي سيدي بنور، فقد اعترفت أمام الجماعة أنك لم تسجد في حياتك لله قط، رغم أنك تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن الساعة حق والجنة حق والنار حق، وأن الله يبعث من في القبور، وتقر بالصلاة ركنا من أركان الاسلام... كان همك على الدوام أن تحدث الزراع عن حبة الشمندر، تفاخرهم بكبر حجمها، رغم نقصان حلاوتها... ماكنت تدري، ولا الآن، سر ذلك الهوس الدكالي بكبر الأحجام: يعشقون البطيخ الغليظ، والشمندر المنتفخ، واليقطينة الكبيرة، والأحذية ذات الأرقام القياسية، ولا يخرجون الثيران من الاسطبل إلا وقد امتلآت شحما ولحما، واستبدلت شعر جلدها، واستحالت وحوشا ذات عيون مفزعة بعد أن كانت عجولا وديعة.

ما يضحكني فيك على الدوام، أنك مداح لنفسك في المجالس، تنتهز كل فرصة حديث عن الذات لتقول: " أما والله اني أحب الخير لكل الناس، وأفعل المعروف ولا أظلم احدا، غير أني لا أصلي..." تحججت دوما بأعذار كثيرة، لكنها لم تشف غليل السامعين، ولا شفعت لك عند أحد من اهل المصلين. كنت تدرك بفطرتك السليمة، أنك أضعف من جارتك حليمة، التي دأبت على الصلاة ، وانتهى بها الأمر الى حج المقام...

جلست يوما بدكان حسن النجار، اذ أبهر السامعين وهو يحكي قصة علال مع صاحب اللحية الطويلة، ذات فجر بسوق الثلاث:

"أدخل علال كبشا أملح أقرن الى رحبة الأكباش، فباعه بسرعة البرق، وراح يبحث عن ركن دافئ بأحدى الخيام ، ينتظر انبلاج صبح يحرك جنبات السوق. تناول كأس شاي ساخنة من يد "القهوجي" ثم أرخى ستار الغطاء الرأسي لجلبابه على وجهه، واستسلم قليلا لنوم خفيف تحت أنظار الزبناء، ويده على جيب حوى ما جناه من بيع الكبش في ذلك اليوم ...

كان يسمع كل ما يدور حوله من حديث وهرج، غير أنه لا يرد على أحد المتكلمين، ولا على شخير النائمين. وبعد أذان الفجر، سمع أحد الناس ينادي في الحاضرين أن قوموا للصلاة ، دون أن يتحرك من مكانه، أو يأبه لقيام القائمين. ولم يزح الغطاء عن وجهه الا بعد أن أحس رجل أحدهم ترفس أقدامه رفسا مؤلما، فنهض غاضبا ينوي تعنيف من قام بذلك، حتى اذا نظر في وجه الفاعل وجسده، رأى لحية طويلة بشارب مقصوص ورأس أصلع، وجسما ذا بنية متينة بكتفين عريضين، فانحبس الكلام بداخله ثم قال معاتبا: "ألا تنظر أمامك، هل أنا ميت؟"

أجابه الرجل الذي بدا كأنه تعمد رفسه:" أجل، إنك ميت، هل تحسب نفسك حيا وأنت تنام عن صلاة الفجر يا هذا؟ "

لم يجرؤ علال على النطق بكلمة واحدة حيال رجل بهيئة عملاق، وحيال كلمات زلزلت منه الأعماق.

تسلل مغادرا خلف صفوف المصلين، وتاه فكره بين الخيام والظلام،كأنما أصيب بصدمة قوية، فمضى يسائل نفسه في حيرة وذهول:

أيكون ميتا من بنى المنازل ذات العماد، وأنجب البنات والأولاد، وسعى لوفرة الكسب والزاد؟

أيكون ميتا من ذاق في الحياة صنوف العذاب، وخالط الناس همومهم حتى نجح في الانتخاب؟

وختم حسن النجار كلامه على لسان علال إذ قال: "قضيت ذلك اليوم تائها في سوق "الثلاث" الكبير، لا أفكر سوى في عبارة الرجل النذير، ثم عدت الى البيت باحثا عن إناء به ماء للوضوء: لقد بلغ كلام الرجل الغريب من الفكر مداه، فرحت أنشد الحياة في الصلاة..."

صُراخ وزغرودة

لطالما ردد في خلواته العديدة مقولة أحد الحكماء، وهو يقضم أظفار يديه ويرسل زفرات متتالية قائلا:

"إن كانت لكم دموع أيها الرجال، فدعوها تنساب كما هي، أفرغوا مآقيكم ولا تخجلوا من الدمع أبدا..."

قالها كالآتي، بصيغة الأمّي الذي لم يسلك طريق كتاب ولا مدرسة، تماما كما حفظها بالسمع:

" زْمانْ بْكَّى الرّْجالْ كْدْ ما بْكّاني   مانْحاوْلْ عْلَى عَيْنينْ ما نْدّيها فْلِّي جْفاني"

ساءت حالته الصحية، ولم يعد قادرا على الحركة، ثم دخل في غيبوبة لم تنفع معها رائحة بصل ولا قطران. صاحت زوجته صيحة جمعت حوله الجيران، واستدعت خروج ابنه في جوف ليل بهيم، باحثا عن "احميدة الخطاف" صاحب سيارة "رونو 4" بدوار القرادلة بضواحي سيدي بنور.

أخذوه على عجل إلى المستشفى الإقليمي بسيدي بنور، يمنون النفس بالحصول على مساعدة طبية، اعتذر طبيب المداومة عن تقديمها، فالرجل يحتاج إلى غرفة إنعاش مجهزة.

بحث ابنه عن سيارة إسعاف تقله صوب مدينة الجديدة، وانزوى "احميدة الخطاف" يضرب بكلتا يديه على فخذيه متمتما:

" إقليمْ عْلَى كْدّو ما فيهش غرفة إنعاش آ عبادْ الله..."

أمام غرفة الإنعاش هناك بالجديدة، وقف "احميدة الخطاف" مشدوها إلى جوار أسرة المريض، ينتظر خروج الطبيب، فقد نالت منه رائحة "السبيطار" حتى إنه لا يكاد ينطق إلا بصعوبة بالغة. كان يراقب الداخلين والخارجين، المرضى

والمعطوبين، التائهين والسائلين والهائمين، قبل أن يهتز سمعه على وقع صراخ تردّدَ صداه بين جدران المستشفى، فأدرك أن صاحبه قد فارق الحياة. أصابه شبه دوار فابتعد عن المكان قليلا، ووقف قبالة جناح الولادة، حيث تناهى إلى سمعه صوت زغرودة تبشر بازدياد مولود: اختلطت عليه في لحظة فزع وذهول أصوات النواح هناك بزغاريد الفرح هنا، في فضاء ضاق بالمرضى واتسع لكل أشكال الحزن والفرح في آن واحد...

تناقلت الهواتف الخبر، وامتد الصراخ إلى دوار القرادلة، وانتظر الجميع جنازة لم تكتمل إجراءات تحريرها إلا بعد انتظار طويل. دفنوه قرابة الغروب، وعادوا يتحاكون أمور دنياهم، باحثين عن ملء البطون وحلق الذقون: فما عادت الموت تخيف إلا سويعات قبل دفن الدفين، وما عادت تهدم لذات الناس إلا أقرب المقربين...

توافد المعزون منذ صباح اليوم الموالي، من سيدي بنور وغيرها، منهم من كان يقدم العزاء ويغادر على الفور، ومنهم من كان يبحث عن مكان بين الجالسين بداخل خيمة نُصبت وجوبا على النعي...

أدخل الفقيه سي عامر سبحته في جوف جلبابه ثم توسل داعيا: اللهم إنا نسألك السلامة والعافية، لقد عشنا خلال هذه الأيام حملة وفيات بسيدي بنور، كل يوم تُرفع أرواح، وتُنصب خيام، وتُجر جثامين إلى القبور...

"إن كانت لكم دموع أيها الرجال، فدعوها تنساب كما هي، أفرغوا مآقيكم ولا تخجلوا من الدمع أبدا..."

الشعالة

تجمهروا على بعد يسير من بوابة السوق، يتابعون ألسنة اللهيب، تلتهم أكداس التبن وجنبات الشاحنة. بينما فر السائق عباس ومساعده بجلديهما مبتعدين، وسط دخان كثيف وشرر متطاير... وبين سائل ومجيب، تبين عباس أن مصدر الشرارة الأولى للحريق لم يكن سوى نزوة مراهقين يتلذذون برؤية النار في عاشوراء...
جابت دماغه المشدوه حزمة العادات والتقاليد المرتبطة بعاشوراء، مرت بسرعة خاطفة مثل وصلات إشهار: أدخنة المفرقعات وأشكالها، ألوان التعاريج وزخارفها، أهازيج البنات كل ليلة من ليالي عاشوراء، عشرات الأصناف من اللعب البلاستيكية المجلوبة للصغار المصرين على التجول والتسول البريء وهم يسألون الكبار حق "بابا عيشور" ، مياه الصباح المبروكة وزخاتها ، أصناف الفواكه الجافة ، طقوس البنات في تقمص أدوار النساء في الولائم، تأكيد النساء على جلب العطور والبخور، إصرارهن على إقامة " الشعالة" قبيل غروب اليوم العاشر من محرم، احتفاظهن بواحدة من قديد عيد الأضحى وشواؤها في نار الشعالة ثم إطعامها المتحلقين حول النار، خروجهن إلى المقابر صبيحة اليوم الموالي للترحم على موتاهم وتوزيع ما تيسر من خبز وتين مجفف وتمور...

وإذ شاعت همهمات المتحلقين تعلن طيشا بغيضا، وترثي حال عباس البئيس، كان آخرون يتجاذبون مشروعية الاحتفال أصلا... فقد اختلف المسلمون بين سنة وشيعة في التعاطي مع هذه المناسبة، فبينما يتخذها الشيعة أيام حزن وحداد على الحسن والحسين، شهيدي كربلاء، اتجه السنة إلى إظهار مظاهر البهجة وإدخال الفرحة على قلوب الأطفال بشراء اللعب والهدايا، وإكمال احتفالاتهم بإطعام الطعام في ساحات المقابر ترحما على موتاهم...
أكلت النار شاحنة عباس ، ولم يتبق منها غير هيكل حديدي فاحم، فاقتاده رجال الشرطة خائر القوى، يجرجر قدميه بصعوبة بالغة. أحس المسكين أنه كان حطب النار في عاشوراء، نار أتت على أخضره ويابسه، فالشاحنة لاتزال مرهونة الملكية، ابتاعها منذ شهور بالتقسيط المريح الذي لم يعد مريحا، بعد أن عدِم مصدر تسديد الأقساط، وبات عرضة للمتابعة والمساءلة...
حاول الضابط أن يهدئ من روع عباس، فأخذ يعدد أمامه ملفات أحداث مشابهة: قنبلة تتسبب في إجهاض حامل في شهرها السابع، طفل يفقأ عين جاره بمسدس الحبيبات البلاستيكية الصلبة، بنت تحرق أثاث منزل العائلة وهي تحاول تقليد

"الشعالة" ، رجل يعتدي على زوجته وقد باغتها تحرق خلطة سحرية تبين منها جلد فأرة الخيل...

عاد عباس إلى بيته راجلا، ثقيل الخطو يحمل جبال هموم، وقف مندهشا أمام الباب، يتابع حركات النساء المتحلقات حول الشعالة على وقع التعاريج والأهازيج، ويتابع شغب أطفال حول نار عمت أرجاء الكون والجسد...

الصندروس وشب اليمن

انتظر" حمان الدغوغي "لحظاتٍ قبل أن ي نهي بائع المرهم السحري دوره في الحافلة، ثم شرع يخاطب الركاب وهو يعرض على أنظارهم صورة رجلٍ مسِ ن فقال:
"أسيادنا السلام عليكم، يقول أسيادنا العلماء (:كل عشبة نابِتة فيها حكمة ثابِتة)...ا نظروا معي إلى هذا الرجل، إنه أبي، تجاوز عمره الثمانين عاما، وتغير فيه كل شيء، لون الشعر والملامح والجلد...إلا الأسنان بقواطعها وأنيابها وأضراسها .لم يزر قط عيادة طبيب في المدينة، ولا خيمة صانع أسنان في الأسواق .ولم يستعمل قط معجونات هذا الزمان، محتفظا ببريق أسنانه وصلابتها، مستمتعا بتجريد العظام من اللحوم، وق ضمِ ما تصل ب من جوزٍ ولوزٍ وحمص...لا شك أنكم تتساءلون عن السر
في ذلك .لقد سخرني اله لكم" كدرهم الحلال"، أجلب لكم من شِعاب الخليج خلطةً قوامها مادة "الصندروس وشب اليمن"، تقيكم بإذن اله شرَّ تسوس وأوجاع الأسنان، والتهاب اللثة واللسان، وت جدِ د فيها البياض واللمعان...
القطعة الواحدة بخمسة دراهم، ومن اشترى قطعتين حصل على الثالثة بالمجان...
قام عياد من مكانه معاتبا يقول :لقد ج رب ت دواءك هذا، ففعل ت حموضت ه الأفاعي ل في فمي، وأحسست كأنما التصق ت أسناني ببعضها،
فازدد ت بذلك صمتا على صمتي الأبدي...
رد" حمان الدغوغي "ساخراً :خير لك أن تبقى صامتا يا رجل، فمن لا يعرف قيمة الدواء، لا يجدر به توجيه خطاب أو نداء...
اغتاظ عياد، وغادر على الفور حافلة " أولاد عمران"، ثم قرر تأجيل عودته إلى بيته، فساقته قدماه حتى وجد نفسه بداخل السوق مرة ثانية، يملأ س مع ه صو ت بائع المبيدات الحشرية إذ يقول:
يا ك عا الفا ر ...وا هنا كم الله

ياك عا الذبان ...وا هناكم اله
ياك عا س راق الزيت ...وا هناكم اله
تأفف عياد من جديد، فقد ضاق ذرعا بأكاذيب الأسواق والأبواق...
حيث اشترى كل أنواع المبيدات دون جدوى، فتناسلت بمنزله أعداد الفئران والصراصير والذباب، واستمر بائع المبيدات مرددا عباراته الشهيرة، وكلما عاتبه الناس على عدم فعالية المبيدات، علل جوابه بقلة نيتهم،" فقليل النية لايربح، ومن كان ذا نية بات مع الحية"...
اختبأ عياد في ركن من أركان خيمة العربي بائع الفواكه الجافة، فأخذته غفوة نعاس من فرط العياء والنكد، فرأى، فيما يرى النائم، نفسه واقفا أمام خيمة كتب عليها" :خيمة المجلس البلدي "وبداخلها ناطق يخاطب الناس ع بر بوقٍ كبير قائلا:
يا ك عا الْ حفاري ...وا هن ا ك م اله
ياك عا النظافة ...وا هناكم اله
ياك عا ال ريزو ...وا هناكم اله
ومشى في منامه قليلا، فشاهد خيمة أخرى أكبر بكثير من الأولى، وقد كتِب عليها" :خيمة الحكومة الموقرة"، وبداخلها ناطق يخاطب الناس عبر بوق أكبر من سابقه بكثير قائلا:
ياك عا القراية ...وا هناكم الله
ياك عا السبيطار ...وا هناكم الله
ياك عا التغطية الصحية ...وا هناكم اله
ياك عا الكاريان ...واهناكم الله
ياك عا المقاصة ...وا هناكم الله
ياك عا الفساد ...وا هناكم الله
ضحك عياد في منامه حتى تعرَّ ت أسنانه المشدودة ب"الصندروس وشب اليمن"، وهو يقارن بين كلامهم وكلام بائع المبيدات الحشرية، الذي دأب الناس على فهم تطميناته بالمقلوب، فتعايشوا مع الفئران والصراصير والذباب حضوراً و سفرا، كما تعايش غيرهم مع التماسيح والعفاريت قضاءً وقدرا...

براح المخزن وزوج قويسينة

ملأ ذكر" قويسينة آفاق السوق بلا بوق، وتحاكى غرائبها سكا ن مركز سيدي بنور على امتداد عقودٍ، عدِمت وسائل الاتصال والتواصل، وذاع صيتها لصيقا بصيت وصوت زوجها" البراح"، الذي كان صو ت "المخزن "المسموع، يستمد نبرته من هيبة رجال السلطة آنذاك...

دأبت" قويسينة "على تعظيم قرب زوجها ومكانته لدى" المخزن "في كل مناسبة ولقاء، حتى بات الناس يزنون الكلام في حضرته، ويمزجون بين أوامر المخزن ونبرته:

"كاتسمعو آناس سيدي بنور:
كال ليكم سيد القايد راه المخزن غادي يفرق عليكم الزيت والدكيك...
والحاضر يبلغ الغايب"

قال الراوي :تعالت زغاريد النساء وتسابق الرجال نحو مركز التوزيع حاملين أكياس القنب البني، لأخذ حصتهم من" البون"، فقد أثقلت كواهلهم قساوة سنوات عجاف...

"كاتسمعو آناس سيدي بنور:
كال ليكم سيد القايد كل واحد يشطب كدام باب دارو ...والحاضر يبلغ الغايب"...

قال الراوي :لقد كانت بحق أهون" تبريحة "ابتسم لسماعها الرجال، وسعد بترديدها الأطفال خلف زوج قويسينة، وهرعت لتنفيذها النساء باحثات عن عيدان أشجار دقيقة، تشكلن منها مكنسات سميكة، بل وجدن في البحث عنها فرصة لشم هواء الحقول ، وتبادل الأحاديث المشحونة بالفضول، بينما كانت قويسينة العجيبة تنتقل بين جموع النساء انتقال الببغاء، تكرر قولا ثقيلا على النفوس، تؤكد فيه بالواضح الملموس، أن كلام زوجها من أوامر" سيد القايد"...

"كاتسمعو آناس سيدي بنور:
كال ليكم سيد القايد كل واحد يجي ر و ج ه دارو ...والحاضر يبلغ الغايب...راه عين شافت وعين ما شافت"...

قال الراوي :ظل الناس يرمقون شطحات قويسينة الماكرة وهي تعلن

بلهجة التشفي، مباركتها لإعلان زوجها عن قرار يغير ملامح المدينة قائلة:
"لمدينة لمدينة ... شحال ولات زوينة"
فيما تقطبت وجوه الرجال وجيوبهم، وقد هرعوا باحثين عن الجير الأبيض ، مشمرين عن سواعد العمل طيلة أسبوع من الطلاء الأخضر عفوا الأبيض...
"كا تسمعو آناس سيدي بنور:
كال ليكم سيد القايد وجدوا فلوس الضريبة، راه الخلالصي غيدور...
والحاضر يبلغ الغايب"
قال الراوي :لم يكن زوج قويسينة البراح على هذا النحو من الحزم الذي كان عليه وهو ينبئ الناس بإيجاد مستحقات الضريبة على المساكن .ولم يكن الناس ساعتها يستثيرون حماقات" البراح "بكلامهم الملغوم كما كانوا يفعلون من قبل، فقد استأثر بهم التفكير في تدبر أمر المبالغ المستحقة، فكرهوا النظر في وجه البراح، وجعلوا أصابعهم في آذانهم اتقاء صوته المريع...
ثم أضاف الراوي:
انتظر الساكنة بلهفة الملهوف، أن يخرج عليهم البراح يوما ب"تبريحة" سعيدة، تنبؤهم بأن المخزن سيوزع عليهم جميعا، وبدون استثناء أو انتقاء من" الشيخ ولمقدم"، شيئا مما يؤكل أو يلبس أو يداوي، إلى أن مر عليهم الزمن سريعا، وأدركوا بعد حين أن البراح قد وافته المنية، وأن زمن قويسينة قد ولى، وأن" المخزن "قد تعدد" ب را حوه" ، وتغيرت نبراتهم، وتعددت أبواقهم وأخبارهم ورسائلهم ، وأن أهون الرسائل باتت تقول:
"لقد نفذ اعتمادكم، المرجو تعبئة بطاقتكم"...

وجدوه ميتا...

لقاوه ميتـ ...
شكو ن هو؟ـ
"حمادة السا طـ ."
فين لقاوه؟ـ
حدا" النخلة الدايخةـ ..."
وقع الخبر على " عبيقة الخطيف "كالصاعقة، وراح يستفسر مخبِره عما حصل بعد العثور على جثة أقرب المقربين إلى قلبه من المشردين، ثم انطلق يعدو كالمعتوه، غير مبال بأصوات المنبهات المتزايدة، يراوغ السيارات والشاحنات والدراجات، متجها صوب المستشفى الإقليمي لسيدي بنور، حيث كان يرقد جثمان صديقه الهالك .وقف أمام باب المستشفى لاهثا من فرط الإعياء، فقد كاد ن ف سه ينقطع جريا وأسفا . منعه
حارس الباب من الدخول، فتذكر فجأة أنه من فصيل المشردين الممنوعين من الدخول والخروج والوقوف والجلوس و ... نظر إلى الجدران العالية من بعيد، وتطاول حتى أطل على ساحة المستشفى من فوق السور ، فما رأى للميت أهلا ولا عشيرة، ولا للمشردين أمثاله أثرا ولا وتيرة، فانقبضت أسارير وجهه انقباضا ، وتودد إلى الحارس كي يخبره بمكان تواجد المرحوم" حمادة الساط "دون جدوى ...تنفس الصعداء بعد أن رأى طلائع طفل صغير من المشردين، ممن كان المرحوم يعطف عليهم عطف الأب الحنون قبل أن تداهمه ريح المنون ...نظر" عبيقة الخطيف "إلى المتشرد الصغير نظرة مواساة، وراح يتخطى السور من الجانب الخلفي، متسللا صوب غرفة الأموات، متوسلا إلى مسؤول سمح له بإلقاء نظرة وداع على زميله ...انتظر طويلا صحبة المتشرد الصغير أمام باب المستشفى قبل أن تنطلق سيارة الإسعاف صوب المقبرة حاملة زميله
62
"حمادة الساط "إلى مثواه الأخير، عن عمر ناهز الخمسين، قضى نصفه تائها بين الهواء والطين...
لم يتبع الجنازة إلا بضعة أنفار تواجدوا بساحة المقبرة .ظل عبيقة الخطيف

يرقب عملية الدفن من بعيد، بينما وقف المتشرد الصغير ممسكا بتلابيبه وعيناه تدمعان فقال :ليتني كنت البارحة بجواره، فربما احتاج وهو يحتضر شربة ماء، أو إشعال نار تدفئه من برد الشتاء...
ووري جثمان حمادة الثرى، وانصرف المكلفون بالدفن إلا عبيقة وصديقه الصغير، جثيا على ركبتيهما قبالة القبر، وصمتا طويلا قبل أن ي قفِلا عائدين إلى ساحة" النخلة الدايخة "كما كان يحلو للمشردين تسميتها:
كانوا كثيرا ما ي سقطون د وا ر رؤوسِهم على النخلة المائدة، فينعتونها ب"النخلة الدايخة..."
هناك وجد عبيقة جمع المشردين يتحاكون قصة موت حمادة ، منهم العابس ومنهم الناعس، منهم الضاحك ومنهم البارك .قرر عبيقة أن يقيم حفلة تأبين لحمادة، يتحاكى عنها المشردون في كل مكان، فكون لجنة تنظيمية من المشردين، واختار أن تكون مهمتها الأولى مقابلة المجلس البلدي كي يخصص لها منحة نعي المشرد الهالك، وتمسك الجميع أن يكون التأبين بقاعة الأفراح .وافق المجلس الموقر على طلب المشردين، وتكلف بمصاريف الأكل والشرب ومبيت المشردين في ليلة التأبين، وتم إخبار المشردين بالمدينة عبر أبواق سيارة الجماعة الحضرية، وعبر الملصقات الكبرى في الشارع الرئيسي ...دخل المشردون ليلة التأبين إلى قاعة الأفراح، أخذوا أماكنهم حول موائد الأكل، ونظروا جميعهم إلى صورة الهالك المعروضة عبر" الداتاشاو"، فتملكهم الحزن الشديد، ولم يتمالك عبيقة نفسه فقام بين الحاضرين يحضهم على التمتع بما لذ وطاب من مأكولات ومشروبات المجلس البلدي .ثم أضاف مخاطبا :أيها المشردون الأعزاء، كلوا واشربوا وتمتعوا بالدفء قليلا قليلا، فلعلكم لا تلقون بعد الليلة مثل هذا، إلا أن يموت منكم واحد كل يوم...
صفق المشردون وانقلب التأبين رقصا بقاعة الأفراح، بينما انزوى عبيقة باكيا في ركن من أركان القاعة، قبل أن يستفيق من حلمه وقد بللت دموعه

63

قطعة الكرتون التي كان يتوسدها بجانب" النخلة الدايخة"، هناك حيث وجدوا صديقه حمادة ميتا...

"البهجة "والشاعر المعارض

مافتئ" البهجة "يحكي للجالسين قبالة" المارشي"، بلكنته المراكشية البديعة، عن قصة شاعر الحمراء مع المطعم البلدي، حتى أتى على مطلع القصيدة ذات الهجاء اللاذع، لذلك الفندق الوضيع الذي زاره إبان الحماية الفرنسية، بل بات فيه ليلة لم ينسها في حياته قط، فقال:

إن كان لكل أرض ما ت شا ن به فإ ن طنجة فيها المطعم البلدي

ضحك الحاضرون لسماع بيت ساخر مغ ل فٍ بلهجة" البهجة"، فعلق أحد الظرفاء البنوريين معارضا ذلك البيت قائلا:

إن كان لكل أرض ما تشان به فإن" ال ح ف رة " فيها المجلس البلدي

قال البهجة معاتبا :دعنا من السياسة يا عباس، فأنا لا يهمني أن تكون مع المجلس أو ضده.

رد عباس مقاطعا :إنك لم تفهم معنى البيت جيدا، فالحفرة تعني سيدي بنور منذ كانت إلى اليوم كما يحلو للأهالي تسميتها، والمجلس البلدي يعني كل المجالس المتعاقبة منذ أن عرف الناس الانتخابات الجماعية...

قال البهجة :أتعلمون أن هجاء شاعر الحمراء للمطعم البلدي قد أتى بنتائج تعاكس ما ابتغاه الشاعر الحانق، الذي قام بإشهار مجاني، حيث أصبح زوار طنجة يسألون عن المطعم البلدي، فكثر من باب الفضول زواره ومرتادوه، بل إن صاحب المطعم فعل كل ما بوسعه لتغيير تلك الصورة البشعة التي ألصقتها به وبمطعمه القصيدة اللعينة، فاستحال مطعمه فندقا بخمسة نجوم...

رد عباس :أتقصد أنني لو أكملت معارضة القصيدة في هجاء المجلس البلدي، سيتدفق الزوار على سيدي بنور من كل حدب وصوب للتملي بطلعة المستشارين الجماعيين، والتبرك بحضور الجلسات؟ أم أن أصحاب المجلس البلدي سيعملون كل ما بوسعهم لتغيير تلك الصورة البشعة التي حفِ رت، حتى قبل الهجاء، عبر سنوات طوال في أذهان الساكنة، فتعاكس

النتيجة رغبتي، ويصبح المجلس البلدي قصرا بخمسة نجوم؟

قال البهجة متهكما :عفوا أيها الشاعر المعارض، قد لا تصلح المقارنة بين مطعم تطل ب الإصلاح من صاحبه رش المبيدات الحشرية وطلاء الجدران
الإسمنتية وتزيين المكان بلوحات فنية، وبين مجلس بلدي يشرف على مدينة نالها من التهميش ما نال الموعودين من قبل عرقوب ...و ه ب أن المجلس البلدي استطاع ترقيع الحفر والثقوب، ول مع الحيطان بالصباغة والطلاء المكذوب، فهل يستطيع لملمة الثقوب التي خرقت الأدمغة والقلوب، فيستقب ل النا س زوار المدينة بكلام غير مقلوب؟
طلب الحاضرون من عباس لزوم الصمت كي يستمتعوا بما تبقى من أبيات القصيدة الشهيرة، فتابعوا إلقاء" البهجة "ضاحكين تارة ومبتسمين أخرى ...وعندما ختم القصيدة بهذا البيت:
ينسى الفتى كل مقدور يمر به إلا مبيت الفتى بالمطعم البلدي
قال عباس معارضا:ً
ينسى الفتى كل أيام تمر به... إلا أيام انتخاب المجلس البلدي
قام البهجة وقد ضايقته معارضات عباس فخاطبه قائلا :لو تكتفي يا عباس بالمعارضة الشعرية، فقد أفسدت علينا جلسة أدبية من طراز رفيع...
نهض الآخرون مؤازرين" البهجة "بالتصفيق، فقد اعتاد أن يختم جلساته المرحة ب"الدقة المراكشية"، بينما تسلل عباس منصرفا في غفلة من الجميع...

"حكا م مويسى على العونات"

كان علال البوكاضو ألحن بحجته من الآخرين، وأجرأهم على التقاضي، وأكثرهم دراية بمزاجية القايد موسى الذي ولاه المعمرون إبان الحماية على قبيلة العونات وما جاورها، فحظي بجوار القائد، الذي كان يستعين به على إصدار أحكامه المجانبة للصواب كما تراه الظنون، غير قابلة للاستئناف أوالطعون...

لا تعرض القضايا التي يفصل فيها القايد موسى إلا في حضرة علال، الذي كان يتدخل في كل مرة، فتكون أحكام القائد مستوحاة من إيماءات علال وتلميحاته .لم يفهم الناس سر المكانة التي حظي بها لدى القائد، إذ لا قرابة بين الرجلين ولا تقارب، ولا فضل لعلال على القائد إلا بما يرسله لسانه من كلام محبب لدى صاحبه .كان الناس يتقاضون لدى القائد وهم يدركون أن الحاكم الحقيقي هو علال .يتضايقون لكنهم لا يجدون لهذا البلاء صدا، فباتوا يهابون سطوة علال مثلما يهابون القائد، وصاروا يطلبون وده ورضاه، فيجزلون له العطاء، ويتفننون في إبداء الاحترام والدروشة إزاءه .واختار البعض طريق زوجته زبيدة، التي خطبت ودها النساء، تبتغين في كل مقاضاة أن تتدخل لدى زوجها كي يتدخل لدى القائد درءا لمكاره الأحكام من غرامات وسياط و سجن .تبين للقوم أن التدخلات عن طريق زبيدة أكثر جدوى من تدخلاتهم لدى علال، فقد كان حامي السطوة في حضرة القائد، مرتعد الفرائص في حضرة زبيدة، لا يرد لها طلبا ولا يعصي لها أمرا .كانت نسوة القبيلة تغبطنها على حظها الوافر، وتداعبنها بطلب إخبارهن بمقادير الخلطة السحرية التي جعلت من علال خاتما في أصبعها الصغير...

دأب علال على أن ينفرد بالكلام وسط الجموع، يحكي عن بطولاته كذبا وافتراء، وعن رجولته وسيطرته المطلقة على أهل بيته، فيما كان القوم يسمعون صامتين غير قادرين على الرد .لقد كانوا يعتقدون أن أحكام القائد الضعيف الذي لقبوه خفية بالقايد مويسى تصغيرا وتحقيرا، تصدر عن علال البوكاضو، فما لبثوا أن تأكد لهم بالواضح المدسوس أنها تصدر عن

زبيدة زوجة علال، التي كانت، كلما أخبرت بالأحكام، تستلقي على ظهرها من فرط الضحك ساخرة من الجميع، حاكمين ومحكومين قائلة" : حكام مويسى على العونات..."
فصار اللاحقون يضربون بقولتها الأمثال ساخرين من جور الأحكام وضحالة الأحلام والأفهام، ذاكرين في كل مناسبة حكمه الظريف السخيف على أناس باقتياد الدجاج مشيا على الأقدام من قبيلة العونات إلى مراكش ذات حماقة...

الحلاوة والطابور

ما إن رشف" الخلفي بوعلام "رشفة من كأسٍ شاي كان مزاجها نعناعا بورِيَّ المنبت، وسكراً نقصت حلاوته، حتى انبرى ينتقص من قدرة الساقي" علال المدني "على الأخذ بزمام البراد، في جلسة جماعية تحت خيمة بدوار" بني اخلف"، على هامش اقتلاع الشمندر السكري .تعاقبت التعاليق من أفواه الحاضرين تتهم علال بالتقتير وضعف الحذاقة والتقدير، دون أن تنال من عناده المرير، وتأكيده على جودة شايِهِ ، ذي العمامة المثير...

حاول" مصطفى الحداد "عبثا أن يخفف عبء الأنظار عن الساقي، بإرجاع السبب إلى قالب السكر الذي نقصت نسبة الحلاوة فيه دون أن ينقص ثمنه ...ثم تنهد حنينا إلى أيام سكر النمر الذي كان يحمل عبارة (صافي عالي أحلى من العسل)؟؟؟

تدخل بوعلام قائلا :ألا يكفيك ما نعانيه مع قياسات حلاوة الشمندر، لتزيد همنا بحلاوتك الناقصة؟

رد علال مستنكرا :كيف تجرؤون على مقارنتي ب"لوزين "الذي يتوفر على مختبرات للتحليل، يقيس بها درجة الحلاوة، ومقدار الأوساخ العالقة بالشمندر، وعلى ضوئها يتم تحديد الأثمنة، فأنا لا أعتمد سوى على حدسي ولساني؟

قال بوعلام :لو اعتمد" لوزين "على حدسك ولسانك لكان تضرر الفلاحين أدهى وأمر، فأنت بهذه الكأس الناقصة الحلاوة تساهم في ترويضنا على تقبل النسب الضعيفة للحلاوة كما تفرزها مختبرات" لوزين ."كما أنني لا أفهم كيف تأتي حلاوة شمندر بعض الناس مرتفعة على الدوام...

أجاب علال :على قدر نيتكم تأتي حلاوة شمندركم، وعلى قدر إخلاصكم وإتقانكم تأتي نسبة الأوساخ فيه...

تدخل مصطفى الحداد غاضبا :متى كان للفلاح دخل في حبة الشمندر؟ فكلنا يحرث ويزرع ويسقي ويعالج بالمبيدات نفسها، ويقتلع ويحمل، ويقف في الطابور ماشاء الله أن يقف، ويفرغ الحمولة ثم يتسلم وصلا يقدمه إلى البنك، وينتظر عمليات الضرب والقسمة والجمع والطرح ليجد نفسه مدينا

للبنك...حتى إذا تساءل مستفسرا قالوا له :خذلتك الحلاوة والوسخ...
قال" علال المدني :"بارك الله لي في البقرات الثلاث، لولا حليبها وعجولها لكنت عرضة لبيع أرضي في المزاد العلني من أجل سداد القروض.
رد بوعلام :سبحان مبدل الأحوال، لقد كنا نسمع عن الحلاوة التي تجلب الشفاء، ت عطى ل"الفقيه "على شكل" بياض "، وحلاوة المنسج التي تطلبها
النساء أثناء إعداده، ثم أصبحنا نسمع عن حلاوة كراء المأذونيات بالملايين، وحلاوة" النوار "لشراء العقارات، وحلاوة الشمندر التي لادخل لنا فيها ، وبذلك اختلطت مدلولات الحلاوة على علال، فلم يعد بمقدوره إعداد كأس شاي ذات حلاوة.
رد علال المدني :لو تحتفظ يا سي بوعلام بحلاوة اللسان فقط، لكنت أسعد خلق الله في القبيلة...
أعادوا كؤوس الشاي إلى الصينية على عجل، ثم هرعوا صوب" عباس" قصد مساعدته على جمع حبات الشمندر المتناثرة :فقد انقلبت شاحنته الملعونة عند منعرج" وزين القادوس "على مشارف مدينة الولي الصالح، بينما تسمر علال في مكانه يتأمل مرجوعات كؤوسهم وهو يتمتم قائلا:
مساكين ...لاحظ لهم مع الحلاوة.

ممر الراحلين

جف ريقها حتى كادت تبتلع لسانها، فقد جابت في ذلك اليوم القائظ أزقة ودروبا عديدة، مرددة لازمة سعيها البئيس :وا خبيز كارم على الله ."سباق محموم وصراع مع أمثالها ومثيلاتها من جهة، ومع أصحاب العربات المدفوعة من باعة مواد التنظيف الذين كانوا يغرون كثيرين ممن يجمعون الخبز الجاف بدريهمات يدفعونها لهم كمقابل...
جلست حليمة تتأمل قليل ما تسنى لها جمعه، وتنهدت بعمق الأنفاس وهي تلمح الكيس الكبير المملوء من قبل علال، بائع مواد التنظيف بالخلط والتقسيط .همهمت بكلمات مليئة بالحسرة والاستفهام حول سر ذلك الإقبال على الخبز الجاف حين طلب منها علال أن تبيعه حصيلة جولتها منه.
وافقت على الفور، فقد وفر عليها عناء الذهاب إلى حانوت عيسى الخراد للتخلص مما جمعت من خبز جاف وأسمال بالية وغيرها ...في طريق عودتها صوب براكتها القصديرية، ذات الأنغام المتباينة بين طقطوقات القصدير صيفا، ومعزوفات المطر شتاء، اشترت ما يسد حاجتها من سكر وشاي بالتقسيط، وخبزتين سمينتين، ثم لاذت بأريحية جارها، صاحب العربة المهترئة، الوحيد الذي كان ينقلها بالمجان...
كان يوم السوق الأسبوعي بمثابة محصول دسم، تتجول فيه بين الجزارين وطهاة السمك الرخو، وباعة الخرفان المشوية وما سواهم من الخضارين والبقالين وغيرهم ...تقضي النهار كله بين سعي واستراحة خلف الخيام المنصوبة، تأكل وتشرب ماشية أو جالسة أو واقفة، وتأكل طول الوقت كلما ملأت كفها بفتات سمك أو بقطعة شحم من شواء تنالها بحنق ودعاء موبوء من المانحين، أو بحفنة من" طايب وهاري "تحصل عليها دون دعوات.
وبينما كانت تتجول بقرب ساحة الخضر، استرعت انتباهها أكوام الخبز الجاف العالية، وأعداد المقبلين عليها من الفلاحين والكسابة، يشترون منها أكياسا كبيرة .لم تفاجأ حليمة إزاء مصير ذلك الخبز الجاف، حيث كان يستعمل كعلف للماشية بديلا أو داعما للعلف المعروف، لكنها فوجئت وهي تسأل عن ثمن بيع الكيلوغرام الواحد من الخبز الجاف، إذ فاق

ساعتها ثمن كيلوغرام من البطاطس عند وفرتها...
تنهدت المسكينة في سكون، وهي تعيد شريط معاناتها طيلة أيام الأسبوع للحصول على بضع كيلوغرامات من الخبز الجاف، تبيعه بثمن زهيد، كي يجلس ذلك البدين، صاحب " الشكارة "تحت ظل خيمته الكبيرة، يبيع بثمن مضاعف ما اقتناه منها ومن مثيلاتها بثمن بخس.
في الغد قررت حليمة أن تستبدل سعيها لجمع الخبز الجاف بجمع المواد البلاستيكية القابلة للتدوير شأن صديقتها فاطمة، بينما كانت هذه الأخيرة قد حسمت أمرها بتغيير سعيها نحو جمع الخبز الجاف .فاحتدم بينهما نقاش طويل لم يسفر عن خضوع أو إقناع، فتوجهت حليمة بالكلام الى فاطمة، وهي تلعن واقعها المرير :أتمنى أن تظهر للوجود شركة تجمع أمثالنا من البشر الجاف قصد إعادة هيكلته ...ضحكت فاطمة مجيبة :هذا إن كنا قابلين للتدوير يا حليمة...

...جلستا قبالة مشهد العابرات والعابرين لممر الراجلين، تسردن حكايات من عبروا هذه الربوع من الراحلات والراحلين، في مقارنة غريبة بين أشرطة الممر وبين مرافع الموتى، وعلامات الأسى والحزن تجلل وجهيهما ، ثم ساد بينهما صمت غريب، قبل أن تنطق إحداهما قائلة: هو ممر الراحلين إذن...

"علال الزيتونـة "

رحم الله الفقير بوحداد، فقد كان رجلا يجتهد في تقوى الله، لاتفارق السبحة يديه، ينقر خَرَزاتِها في ذكر متواصل، ويجتهد في حبكة أقوال تنم عن طيبوبة نادرة وعشق لصيق بأهل هذه المدينة إذ يقول: " بْلادنا بْلادْ الطلبة والصالحين والمْجاذيب". وحين يُحَقِّر العامة المجاذيب يجيب: ما خلق الله من بشر عبثا، فكل إنسان يحمل رسالة ما، وصلت الناس أم لم تصل، رفع الناس قدره أم احتقروه، تعلموا من ضعفه أم أهملوه...

حكى يوما عن أحد المجاذيب فقال:

كالعنقاء كان ينبعث من تحت الرماد تارة، يأتي بحركات وسكنات، وينطق بكلمات تغذي مجالس القوم على موائد لحم سوق "الثلاث" نهاية كل أسبوع، وطورا يشاهده "الهباشة" في ساحة السوق الواسعة، أشعث أغبر، كأنما ينتفض من تحت الأنقاض ، بعد هدوء عاصفة الأبواق، وانخماد نيران الأفران ومقالي السمك والإسفنج الكبير: انه "علال الزيتونة"، كما عرفه صغار وكبار عصره. اختار أن يبيت كل ليلة داخل فرن من أفران طهي الخبز وشواء الخرفان، فقد كان المسكين يجد بها دفئا لايجده خارجها، وحنانا لا يحسه في الآخرين من بني جلدته، ومسكنا يقيه شر العواصف والأمطار. اختار من بين الأتربة الرماد، ومن بين الألوان السواد، رغم اتساع الآفاق وتعدد الألوان والأسواق...

واستطرد الفقير بوحداد راثيا حال "علال الزيتونة" : ياله من مخلوق عجيب، يقبل اللقمة من أناس ويرفضها من آخرين، ويرمي بالنقود البيضاء ولا يقبل إلا الصفراء، يجمعها ثم يشتتها غنيمة للأطفال الصغار إذا تبعوه وأتعبوه. وكثيرا ما رأينا رجليه تبيتان خارج الفرن لضيق المكان.

ولو كان الفقير بوحداد حيا بيننا لأضاف: لقد كان علال الزيتونة ينذر الناس بالغلاء وهو يرمي بالنقود البيضاء ذات القيمة المرتفعة، وينذرهم بالسكن الاقتصادي وهو يبيت في الأفران التي لا تسعه منفردا، تماما كما لا تسع المساكن الاقتصادية أصحابها، وتحرمهم من استضافة أهاليهم، فَيُصَبِّرُونَ بعضهم بعبارة:"التيساع في القلب"، وينذرهم بعزلة الإنسان وغربته وسط الجماعة ذات العدد ، وينذرهم بقساوة المعيش داخل براريك القرية المكدسة وهو يرسل ساقيه تبيتان في العراء خارج الفرن...

واصل الفقير بوحداد حكاية علال الزيتونة قائلا: كان يمشي الهوينى مشية الطرسوح، يحمل العديد من الأواني القصديرية والقنن البلاستيكية، يُرى على هيئة شجرة متحركة، يتبعه الأطفال بين الحين والحين مقلدين مشيته ومرددين:

وا علال الزيتونة   كالشجرة المدهونة

ولو كان الفقير بوحداد حيا بيننا لأضاف: لقد كان علال الزيتونة يحذر الناس من يوم تتعرى فيه جنبات الطريق الرئيسية بعد اختفاء الأشجار المغروسة منذ سنين بفعل فؤوس قطاع الأشجار في الظلام، وهو يمشي كالشجرة ذات الأغصان القصديرية والبلاستيكية

فكثيرا ماكان ينهى عُصاة الأسواق عن ظلم الناس والبيئة، فكانوا يجاهرون بالنفي تكذيبا للحساب والعقاب مقهقهين: (وهل رأيت أيها الفقير ميتاً خرجت رجله من القبر؟)

فكان يرد معلقا: والله لقد رأيت رجل "علال الزيتونة "خارجةً من فوهة الفرن، والأفران تشبه القبور خلا يوم السوق، فقد مات المسكين بداخله في ليلة من ليالي الصيف الساخنة، وما دَلَّ الناس على موته إلا رائحة جثته التي اختلطت بروائح المسلخ البلدي وروث البهائم ومجاري "الواد الخايب" .

ولو كان الفقير بوحداد حيا بيننا لما ندم على شيء أكثر من ندمه على رسائل علال الزيتونة التي وصلت متأخرة، والتي لم تصل بعد..

غربة أم

ودودةً تلك الأمُّ كانت، تبعث الدفء والسخاء في كل الأرجاء، ربةَ بيت من طراز نادر، حريصة على راحة الزوج والأبناء حرصاً لا يضاهى. لا غرو في ذلك، فقد عاشت طفولتها في بيت ينبض أحاديث ودّ ذات شجون، تُردد مرة بعد أخرى قول الجدة عبر عقودها القاسية: "الصّلة تْتْبع الصلة ولو كانت من العْنْصيلة"... قولة ضمن أقوال تواترت منذ عهود، وصمدت بعد أفول أجيال وتبدل أحوال. تفرق الأبناء يدرسون في مدن متباينة، فبدا لها أن الزمن يعود إلى الوراء، وأن التاريخ يعيد نفسه، وتراءت أمام مخيلتها صورة زوجين قادمين يبحثان عن بيت للكراء، يحملان حقيبة ملابس خفيفة، وأحلاما عريضة ثقيلة، ثم دخلا بيت الزوجية لا يفترقان مثل توأم، ولم يشعرا بشيء إلا وقد كبر الأولاد في غفلة من زمن...

وإذ عاد الفراغ يضرب في كل ركن من أركان البيت والجسد، باتت المسكينة تنتظر العطل المدرسية بفارغ الصبر، كي يلتئم شمل العائلة من جديد، وتتنفس حرارة الأحاديث ودفء الأحاسيس. ولما اجتمعوا ذات عطلة، حاولت مداراة الجفاء الذي خيم على المكان، إذ باتوا جميعا وعقولهم شتى، يمسكون شاشات الحواسيب النقالة أو الهواتف الذكية، لا يتجمعون إلا على مائدة أكل، بل كان بعضهم يأكل بيمناه ويداعب لمسات الهاتف باليسرى. أحست ذات مساء وهي جالسة في البهو أمام شاشة التلفاز، بعزلة مقيتة، وكأن عدوا لدودا غزا بيتها وسرق منها زوجها وأولادها، فعم البعد والجفاء حضورا وسفرا.

تكررت تلميحاتها المنبهة دون جدوى، فانهارت باكية في غفلة من الجميع، تلعن هذا التقدم المعلومياتي الغاشم، الذي جعلهم يسيحون في عوالم افتراضية مقصورة عليهم، يدخلونها ويتركونها بأقفال ورموز... انتبهت إليها ابنتها الكبرى، فأسرعت نحوها تسألها عن سبب البكاء، ثم هرع الأب والأبناء مذعورين مستفسرين. فكانت المسكينة تمسح دموعها في مكابرة نادرة، وتطمئن الجميع أنها فقط متضايقة من هذا الجفاء الذي لم تتعود عليه.

خلد الزوج للوجوم، وحضنتها ابنتها تربت كتفيها في حنو واعتذار، بينما رمى الولد الأكبر بهاتفه الذكي على الأرض حتى استحال قطعا مفككة، ثم أخذوا جميعا يعتذرون ... بعد لحظات هدأت الأم الرؤوم، فلملم الولد هاتفه، وعادوا إلى حواسيبهم وهواتفهم من جديد.

أثناء وجبة العشاء، قرروا أن يفكروا في هدية خاصة، يطيبون بها خاطر سيدة البيت، عسى أن يطردوا عنها نحس الأحاسيس المدمرة. ضحكت الأم حتى استلقت على ظهرها وهي تفتح علبة الهدية: لقد كانت عبارة عن حاسوب جديد خاص بها، وقد فتحوا لها حسابا

على مواقع التواصل الاجتماعي. فما هي إلا أيام حتى اتخذت لنفسها مكانا في البيت لاتبرحه إلا لماما...

مليكة

سحرتها النوارس، فكانت مليكة تقعد كل غروب مقاعد عزلة شاطئية، يشنف سمعها هدير أمواج عاتية، ممزوج بأصوات النوارس المحلقة على ارتفاع قريب. وإذ تستمد من الغروب لوحات تهيم عشقا في رسمها، ومن الأصوات أنغام عود تهيم في النقر على أوتاره، كانت الطفلة الحالمة تطرح عشرات الأسئلة دون أن تجد لها أجوبة شافية...

وسرعان ما كانت تستبد بها صخرة قاسية، دأبت عوانس المدينة على زيارتها، فقد أحسسن أنها أحن عليهن من قلوب أقوام عزفوا عن الزواج، فهي تمدهن بأمل منظور على أقل تقدير...

سارت مليكة باتجاه الصخرة ذات غروب، وهي تتساءل في قرارة نفسها عن جدوى ما تفعله الزائرات، إذ يتبعن باحتراس شديد طقوس زيارة الصخرة المعلومة، فيحرصن على التمسح بها، والاستحمام بجوارها، وتعريض أجسادهن العارية لسبع موجات، دون زيادة أو نقصان، ثم التخلص بعدها من ملابسهن الداخلية وتعليقها على جنبات الصخرة. كل ذلك في حضرة محافظة الصخرة المبروكة، التي كانت تهمس في آذانهن بتعاويذ خرافية، فلا تلبس احداهن ثيابها إلا وقد لبست ثياب يقين بقدوم العريس المنتظر...

استغربت العوانس قدوم مليكة الفاتنة عليهم، فهي لم تبلغ بعد عامها العاشر، فقد هالهن أن تصبح العوانس على هذا القدر من الجمال، وفي هذه السن المتقدمة، فلا تنفع في أمثالهن صخرة ولا جبل...

لم تكن مليكة تفهم كثيرا مما يدور. ولئن أدركت أنها غير مرغوب فيها من قبل العوانس، فقد ساورها الشك في أن تصيبها لعنة الصخرة الصماء: فلطالما سهرت الليالي تقارن بين أحاديث النساء المضللة وبين كلام الفقيه المتهكم في كل مناسبة من الصخرة، فقد بات يصفها بمناة الثالثة الأخرى...

تزوجت مليكة بعد حين، وأنجبت من الأولاد ثلاثة، فعادت يوما الى مسقط رأسها، وأصرت على أن تقف بمحاذاة الصخرة القديمة. تحدثت عنها طويلا لأبنائها قبل أن تصمت لحظة وهي تتأمل شرود الصخرة: فقد مرت الأعوام دون أن يخطب

ودها صخر ولا بحر، فيما تكاثرت أعداد العوانس في المدينة ، وتفاقم يأسهن حتى تجرأ بعضهن على الكتابة على ظهر الصخرة عبارة تقول:

أيتها الصخرة اللئيمة، ارحلي...

عليوة

وهو يسند فكره إلى جدار عزلته المألوفة، كان "عليوة" يدندن بكلمات من الطرب الشعبي القريب الى قلبه مرددا:

وراه كلها ورزقو عند لي خلقـــو

كون الزهر يتباع نعطي فيه ذراع

بغيتي تسارا لبلاد دير روايد جداد

هـــو بقى يكريدي حتى خرج يـدي

لكنه سرعان ما يبتسم في وجهي، ويقطع دندنته في هدوء، قبل أن يشرع كعادته في تشبيه نفسه بقط ذي سبعة أرواح، أو ثعبان يموت من رأسه ويحيى من الذيل... متسائلا في حنق: "كيف تعافني الموت؟ ألا أصلح أن أكون حتى مجرد جثة في هذا العالم المليء بالجثث؟

وحين كنت أقاطعه بلازمة :" الأعمار بيد الله"، كان يلوذ بصمت يوقظ بداخلي كل مشاعر الحسرة والأسى، فقد كانت مرايا عينيه تعكسان سنوات الضياع، حيث عانى كل أنواع الخصاص والقصاص أيام الدراسة الطويلة حتى تسنى له أن يصبح مجازا... وتعكسان عودته الكئيبة الى البلدة، يترقب ساعة فرج تلوح في أفق المدينة الغائرة. فقد جرب أن يدق أبواب المباريات كي يشتغل دون جدوى، وطرق أبواب الشركات الخاصة دون أن يحظى بفرصة عمل... يلتفت يمينا وشمالا، فيشفق على أبيه الذي جاوز سنه السبعين وهو يمسك المحراث الخشبي مربوطا الى حمار وجحش، فينهض نهوض الغاضب المشفق، يكمل ما بدأه الوالد دون أن تكتمل أشغال الفلاحة بمردودها الهزيل...

يشعل سيجارته السوداء التي كوت أطراف أصابعه، فيروي تفاصيل محاولتي الانتحار الفاشلتين اللتين أقدم عليهما ، مرة حين شرب دواء الفئران، ومرة حين حاول شنق نفسه بحبل... ثم يضيف : لقد أضعت عشرين عاما في التمدرس، فلا أنا حظيت منه بوظيفة، ولا تعلمت صنعة أو تجارة...

وسرعان ما تتملكه رغبة في الخروج من نفق هذا الحديث المظلم، فيرسل ضحكة عصية على الخروج من ثنايا جوفه المكلوم... يذكر كيف لجأ يوما إلى التظاهر بشكل منفرد بالعاصمة أمام قبة البرلمان، إذ خطر على باله أن يعتصم. فكر في

عبارة تشعر الحكومة بوقفته الاحتجاجية، فقرر أن يكتب على قطعة قماش يلفها حول رأسه، الكلمة الأولى من الآية الكريمة" واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"، وبدل أن تفهم الحكومة الموقرة أنه معتصم، وتلجأ إلى محاورته، أرسلت إليه فردا واحدا من أفراد قوة التدخل السريع، يحمل على جبهته قطعة قماش تحمل الكلمة الثانية من الآية الكريمة" بحبل" ، كان يحمل حبلا ظل يضرب به عليوة المعطل حتى أوصله محطة الحافلات...

وإذ مج عليوة ما تبقى من فتات سيجارته الممسوكة بظفرين، علق على المشهد قائلا:

كان علي أن أنتظر وصول باقي المعطلين إلى مكان الاعتصام، وأن أكتب الآية الكريمة كاملة، حتى إذا قرأوها لم يجدوا ما يضيفون إليها فيقولون: صدق الله العظيم، هؤلاء المعطلون لابد أن يشتغلوا...

حلقة مفرغة

تحلق الناس حوله في ساحة "جامع الفناء". اقتعد حقيبته الخشبية ، ناظرا حلول موعد الحكي، فقد كان البهجاوي عملاقا مثيرا بطول مترين أو يزيد، وحكواتيا بارعا يشد الأسماع، يرتدي جلبابا أخضر لامعا، يعكس لَألاء شمس مالت نحو الغروب. وقف لحظة يرقب الساحة من فوق الرؤوس، يغازل مروض الأفاعي بابتسامة عريضة، ثم بسمل وصلى على النبي الكريم، وقال:

"حكايتنا اليوم يا سادة يا كرام، عن الباشا الهمام، صاحب الحربة والسهام، وما فعله في أهل الدار ، في زمن السيبة والاستعمار: لقد أمسك المعمرون بزمام الأمر والنهي بقوة البارود، فاحتنكوا ثلة من عشاق الزعامة، يسوقونهم سوق النعاج، وجعلوا منهم قوادا وباشوات، وأطلقوا أياديهم على الضعفاء والمساكين يسومونهم سوء العقاب، يصدرون الأحكام كما رغبت أهواؤهم، واستعذبت نزواتهم، فبات الناس يتخوفون أن يهمسوا في آذان أنفسهم بسوء عن المعمرين وأعوانهم".

كان سعدون الغنباز واحدا من رجال الباشا الهمام، مشاءً بينه وبين أمثاله بالرسائل الملفوفة، يقطع المسافات الطوال مهرولا، بقدمين حافيتين لا تشكوان تعبا ولا وهنا.

يذكر بمرارة وألم شديدين ما كان شاهدا عليه من أحكام الباشا الهمام، كالحكم بالجلد على مرتكبي المخالفات البسيطة، إذ كان الجلادون يعمدون الى تنفيذها بجور سخي، كأن يتعمدوا الاختلاف فيما بينهم حول عدد الجلدات، فيتدخل أحدهم لحل الخلاف بدعوتهم الى إعادة العد من البداية، وهكذا يُجلد صاحب الخمسين جلدة بمائة أو يزيد...فيتهيب الناس من ارتكاب المخالفات كلما سمعوا بذلك، حتى إن الباشا الهمام كان يرسل المرأة المزينة بالحلي النفيسة، تمشي على انفراد في أوحش البراري، فلايجرؤ أحد على الاقتراب منها، مخافة الأحكام القاسية والجلد المضاعف...

بل كان ثمة محكومون بحراسة شتلات الأوكاليبتوس بجوار الطريق المعبدة، يقضون الليالي ساهرين، سائلين الله ألا يصيب الشتلات مكروه يُرْمَون به في غياهب السجون أو يُجلدون به جلدا على الظهور والبطون"...

أغمض البهجاوي عينيه ثم قال بامتعاض: " هكذا يا سادة يا كرام، كان الناس يؤدون الواجب خائفين وجلين غير مأجورين، اليوم يا سادة يا كرام، تنعمون بالحرية والسلام، وتتنصلون من أداء الواجب متعللين مختبئين وراء يافطات الحقوق... تهْتُم في دوامة الحق والواجب تدورون في حلَقة مفرغة".

فتح عينيه، فوجد الحلْقة مفرغة، فقد انفض المتحلقون من حوله بمجرد أن قابل الغابر بالحاضر، والواجبات بالحقوق...

ليلة العمر

ما فتئت رباب تردد وهي توزع الدعوات على النساء: لقد أقسمت أن أقيم لابنتي الوحيدة عرسا يتحاكى عنه القصاة والدناة، فلا تترددن في الحضور صحبة الأهالي إلى قاعة الأفراح، ستكون واحدة من ألف ليلة وليلة... لقد كلفت بالتنظيم أفضل ممون للحفلات بالإقليم، واستقدمت أمهر المجموعات الفولكلورية من مدينة مراكش، ومزينة العرائس الشهيرة من الدار البيضاء... إلى غير ذلك من المفاجآت السارة، فمرحبا بكن بلا حدود... هي ليلة واحدة أو ليلة العمر كما يقال، وليكن بعدها ما يكون!!!

كثيرات من المدعوات أصررن على الحضور للتأكد من زيف ادعاءات رباب، فقد عهدنها من وسط متواضع، وزوجها موظف بسيط، دأبن على مشاهدته ضمن طابور الشباك الأوتوماتيكي كل ثلاثين يوما، بل قبل ذلك مع المتسائلين عن صرف الحوالات...

امتلأت القاعة عن آخرها، وغصت جنباتها الخارجية بالسيارات و الحركة، وبدا بابها الكبير مؤثثا بما يليق باستقبال أرستقراطي، لعبت فيه رباب دور السيدة المبتسمة على الدوام، تتوسط نحرها قلادة على شكل يد خماسية الأصابع، تدرأ عنها وعن حفلتها عيون الحاسدين والحاسدات، مشيرة بيدها اليمنى أن ادخلوا القاعة فرحين مطمئنين، غير خزايا ولا محرومين!!!

وشوشت بائعة الخبز السمين في أذن زميلتها نسرين متسائلة عن زوج رباب الذي لم يظهر له في المشهد أثر. ردت نسرين: إن الرجل من قبيلة أولاد اسبيطة، بدوي أصيل، والبدو لا يحضرون أعراس بناتهم، بل يلزمون بيوتهم. ضحكت بائعة الخبز السمين متهكمة تقول: لقد انتهى دور الزوج المسكين عند استلام مبلغ القرض البنكي وتسليمه لرباب... لقد أخذتها نشوة الأعراس، فدفعته دفعا لطلب السلف الثالث... غدا تستفيق المسكينة على وقع الأقساط المتراكمة، فتعض أصابعها ندما حين تنهال عليها طلبات أبنائها الذكور، يوم تتوالى مصاريف الدخول المدرسي ورمضان والأعياد...

قالت نسرين: إنك تبالغين كثيرا أيتها الشقية، ألا ترين أن جل هذا الرواج الاقتصادي والاجتماعي والسياسي و... قائم على السلفات والقروض؟ فما العيب أن يقترض الناس إذا كانت الحكومات تقترض حد الإشباع؟

ردت بائعة الخبز السمين: دعينا من السياسة، فقد حضرنا للترويح عن أنفسنا من هم المعيش اليومي، وتناول أكل بألوان مغايرة، به لحم وإدام، يشغل معدتنا حتى نهاية الأسبوع!!!

قالت نسرين: هكذا أنت، تنتقدين القروض وتأكلين من غلتها...

أشاحت بائعة الخبز السمين بوجهها عن نسرين وقد أغاظها القول، وترنحت في مكانها مولولة : سترين صدق كلامي! إن إحداهن أغرقت زوجها في القروض، فلم يمض عام واحد حتى تبادلا ملابسهما الداخلية من شدة الحاجة والعوز...هه...

ردت نسرين محاولة تطييب خاطر زميلتها: أتقصدين أن حكومتنا التي اقترضت حد الإشباع ستلجأ بعد المقايسة الى رفع الدعم عن المواد الأساسية، لتدفعنا إلى تبادل الملابس الداخلية فيما بيننا أيتها اللعينة؟!

ضحكت بائعة الخبز السمين وهي تمد يدها إلى طبق الحلوى قائلة: هكذا أنت، لقد كتب على جبينك النكد، تتحدثين عن الأزمات في الأفراح والأتراح...

ملأت أرجاء القاعة إيقاعات الدقة المراكشية، تشد القلوب والآذان، بينما شدت انتباه نسرين علامة إشهار للسلف المريح على قميص عناصر الفرقة الموسيقية...

خدام الضريح والطازوطا

حكى للزائرين خدامُ الضريح الجاثم في ربوع قرية نائية من قرى الأمازيغ، أن المشمول برحمة الله قد لقي حتفه في الثلث الأول من القرن العشرين، على يد نزلاء غرباء، حلوا بالمنطقة إبان الحصاد، ضيوفا عليه ثمانية أيام ، أكرم طيلتها وفادتهم، واطمأن إليهم إذ قصموا ظهره بالمديح، فأطلعهم طواعية على محتويات خزائنه من هدايا المحبين والمريدين وعطاياهم... تحينوا فرصة نزوح الأهالي صوب السوق الأسبوعية، لينفذوا ببشاعة جريمة قتل الولي الصالح بحجارة مسومة غريبة عن حجارة البلدة وصخورها، استقدموها ضمن متاعهم مُصرين مترصدين، ثم سرقوا متاعه وتركوا البلدة مسرعين...

منذ ذلك الأمد، دأب المحافظون والمريدون على إحياء ذكراه بإقامة موسم الولي الصالح، حيث تُنصب حول الضريح الخيام، وتُنحر الذبائح لإطعام الطعام، ويبتغي الزوار فرجة الفروسية والحلقات حيث تُقام...

وكلما هبت على الموسم ريح عاتية، أو سيول قوية جارية، أو شيء من غضب الرعود، طاف طائف ينادي في الحاضرين مهرولاً: " لِيرحلْ من هنا فوراً مَنْ ينتمي إلى قبيلة القتلة! عسى أن تهدأ العاصفة... ليرحلْ دون إبطاء!!!" ويستمر على تلك الحال ما استمرت العاصفة، لا يهدأ حتى تهدأ... ثم ينطلق بعده خدام الضريح ومحافظوه بين الناس يحكون حكاية قتل الولي الصالح، وحكاية الصخرة الغريبة عن البلدة، والملطخة بدمه الشريف الذي لا ينمحي!!! ثم يقرنون العاصفة بغضبة الولي الصالح إذا دخل الموسمَ أحدٌ من قبيلة القتلة...

هل كان خدام الضريح على درجة من الدهاء، يستغلون تغير الأحوال الجوية ليرسخوا بادعاءاتهم كرامة الولي الهالك في أذهان العوام، ويضمنوا بالتالي تدفق العطايا والذبائح وغيرها؟

الأدهى من ذلك أن شخصا غريب الأطوار، لم يعرفه أحد من الخدام أو الزوار، أتى على هيئة معتوه يمشي بين الناس مرددا بأعلى صوته: " يا عشاق الولي الصالح، راهْ الحجرة للي قْتْلاتو مْنْ بْلادْ الطازوطا"...

تساءل الناس عمن يكون ذاك الغريب الناطق دون أن يجدوا جوابا، بينما جال المحافظون والخدام بين الناس يسألون عن بلاد الطازوطا، فقد كانوا على استعداد للأخذ بثأرهم من قتلة جدهم كما يدعون...

وفي عز الجلبة والذهول، ظهر بين الناس غريب آخر، فأشار عليهم بالقول: "إن بناية الطازوطا وليس بلاد الطازوطا موجودة في قبيلة تدعى قبيلة أولاد بوعزيز، يسكنها مغاربة يتحدثون لهجةً دَرَجَتْ عن اللغة العربية... يقال والعهدة على القائل أنهم اهتدوا إلى هذا النوع من البناء بعد أن حرمهم الاستعمار الفرنسي من الترحال، فاتخذوا الطازوطا مساكن وحظائر للمواشي ومخازن للحبوب والأمتعة، فهي تتميز بصلابة صخورها واتساق هندستها البعيدة كل البعد عن أن تكون من ابتكار فرد بوعزيزي"...

الشبح

تحركت المدرسة-الخيمة بالتوازي مع حركة خيام الرحل عبر مناطق تندرارة وبني كيل وآيت بوشاون وبوعنان وغيرها... فقد ابتهج الكسابة وأهاليهم بإقدام الوزارة الوصية على تخصيص عدة لوجيستيكية للتدريس، قوامها مدرس وثلاث خيمات، تُعتمد أولاها كحجرة دراسية والثانية كمطعم مدرسي والثالثة كسكن وظيفي، علاوة على شاحنة لنقل الخيام، تجر خلفها صهريجا لجلب الماء على الدوام...

وإذ كان الكسابة يتنقلون بحثا عن الكلإ والماء لماشيتهم في إطار ما يعرف لديهم بعادة " ولف المرعى" كان الأستاذ محمود، الذي تسلم تعيينه حديثا، يتنقل مشدوها بين الخيام باحثا عن " ولف المسعى"، واستكناه واقع تعليمي غريب عن كل ما تلقاه من تداريب و تغاريب...

وجد نفسه ذات خريف بين أناس يعيشون في شبه عراء أبدي، فكأنما تم اجتزاؤهم من خريطة البلاد وصنف العباد، فتتبعوا أقدارهم خلف نبات وجماد... صاحبهم قسرا في صمت اليائس المغبون، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون وينام حيث ينامون، بداخل خيمته المعزولة ابتداء. استمر الترحال شهورا، ابتعدوا خلالها عن مقر الإدارة المشرفة على المدرسة-الخيمة، فانقطعت صلة الأستاذ بالعالم الخارجي في غياب الهواتف النقالة آنذاك، إلا مذياعا صغيرا ظل وسيلته الوحيدة لقياس المواقيت. حتى الناقلة تم ركنها بالقرب من تكنة حدودية بعد إصابتها بعطل، فتعطل بذلك زاد المطعم المدرسي.

أقنع محمود نفسه بضرورة مسايرة واقعه المرير، فأخذ يرافق الكسابة خلف المواشي بعد الانتهاء من الدرس، يصنع مثلما يصنعون، حتى بات يساعد الشياه على الوضع، ويحضن صغارها في حنو وسعادة غامرة. كان الكسابة على قدر كبير من الطيبوبة والسخاء، فسرهم أن يندمج بينهم قادم غريب، يعلم أبناءهم ويحنو على مواشيهم...

أطلت " العفراء" وعلى رأسها قربة ماء، وقعت عيناه عليها وهو جالس ذات صباح، يتأمل في شرود ذلك الفراغ الشاسع بين الفجاج. أسدلت الخمار على وجهها بينما رج كيانه خفقان قلبه المسموع، فما لبث الكسابة أن أقاموا عرسا في الخلاء، زفت فيه العفراء لمحمود... قضيا شهورا من عسل الجبال، يتجولان يدا

في يد بين المروج والتلال، ولم ينتبه محمود إلا وقد انقضى الموسم الدراسي، وزغردت أم العفراء إيذانا بازدياد توأم شقيق...

"ما عدت وحيدا بين الرحل يا محمود! لقد صرت رابع أهلك أيها التائه الموعود ! "

هكذا مشى وئيدا يحدث نفسه قرب نهر طويل، يتابع انسياب مجراه بين الصخور باتجاه المجاهيل... قرر فجأة أن يعود إلى المدرسة المركزية بحثا عن حوالة مدرس أو قوامة رجل، هناك في تندرارة، حيث التقاه المدير بحاجبين مترابطين تعجبا واستغرابا، فأخبره على الفور أن الحكومة الجديدة وقتها، قد قامت بجرد ميداني للتأكد من الموظفين الأشباح، وأنه تهيب من إثبات حضوره بعدما انقطعت أخباره شهورا طويلة، وخاف أن يكون في عداد المفقودين، فتصيبه معرة نائب أو وزير...

راح محمود يتجول أياما بين مكاتب النقابات وأقسام الوزارات في العاصمة، ذاق خلالها ألوانا من التماطل والانتظار. لم يجرؤ على العودة إلى " ولف المرعى" صفر اليدين، ولم يتقبل داعي وسوسة العودة إلى بلدته الأصلية الغارقة فقرا وبداوة. ولم يجد منقذا من قساوة برد الليالي غير جموع المتظاهرين أمام الوزارة، الهاتفين طول النهار، حتى إذا بحت حناجرهم، عمدوا إلى مقرات النقابات الحاضنة في انتظار بزوغ فجر يوم جديد... كان محمود بينهم ذا ملف مطلبي فريد، لخصه في عبارة خطها سؤالا على لافتة فريدة، وحملها طول الوقت منعزلا عن باقي المحتجين:

"هل يعقل أن يكون مدرس الرحل شبحا يا سيادة الوزير، بينما أخبر الأشباح الحقيقيون بساعة الجرد فحضروا؟"

كانت نقابات ذلك الزمن تحاور حكومة ذلك الزمن بأولويات الجموع الضاغطة، وتتحدث مجازا من ثنايا جلابيبها الخاصة، فنال ملف محمود الفريد من التهميش ما دفعه لمغادرة العاصمة دون وجهة تذكر، هائما في طرقات الضياع، فقد بات لدى الوزارة موظفا شبحا، ولدى والديه ابنا شبحا، ولدى زوجته بعلا شبحا، ولدى أبنائه أبا شبحا...

وكما أن المصائب لاتأتي فرادى، فقد تنبه في لحظة ذهول لفقدان بطاقته الوطنية أثناء فراره من قوات التدخل السريع، فضحك ساخرا من نفسه منكسرا يقول: "اكتمل النصاب: لقد أصبحت بفقدان البطاقة مواطنا شبحا...

هشام سايكس بيكو"

مج عياد نفساً عميقاً من دخان النارْجيلة المسومة بنكهة الزنجبيل، وأطلقه غامقاً خانقاً في فضاء براكة "هشام سايكس بيكو" هناك في حي"القرية"، فأتبعه الأخير بنفس آخر من فوهة" السبسي" الطويل المسلول، وهو ينطق مازحا: "كأن براكتي موصولة بقنوات أدخنة "لوزين"... لم يعر عياد المزاح كبيراهتمام، فقد كان منشغلا بذلك اللقب الغريب الذي اقترن بهشام، فبادره مستفسرا عن مصدره ومسبباته. رد هشام في تثاقل مفتعل: ستزيدنا والله تيها على تيه وسط الدخان يا عياد... سامح الله ابن أخي، ذلك المثقف الودود الذي ما إن أخبرتُه عن اتفاق جرى بيني وبين أبيه، يقضي ببيع براكة والدنا المرحوم دون إخبار بقية الورثة المشتتين، حتى قال: أتدري ياعمي أن فرنسا وإنجلترا قد اتفقتا بموجب معاهدة سايكس بيكو، بمباركة من روسيا بعيد الحرب العالمية الأولى، على تقسيم دول الهلال الخصيب فيما بينهما دون اكتراث بالآخرين، تماما كما فعلت وأبي، لذلك سألقبك منذ اليوم ب" سايكس بيكو"..ضحك عياد ملتفتا صوب هشام دون أن يتبين وجهه بسبب كثافة الدخان، ثم قال: إنك والله جدير بهذا اللقب، فأنت علاوة على ماذكرت، شديد الولع بالحديث في السياسة. رد هشام: إن ضبابية الرؤية في هذه البراكة اللعينة تشبه إلى حد كبير ضبابية المشهد السياسي ببلادنا، وضبابية المستقبل إزاء تفاقم المشاكل في شتى القطاعات..قال عياد: لقد انتفخت أوداج رأسك ياهشام، فإن دأب شاربي دخان "الكيف" أن يصابوا بالوهن والخوف، فتكبر في أعينهم الصغائر. رد هشام منفعلا: بأية صغائر تهذي ؟ أليس مأقول واقعا يسرده الحاكمون قبل المحكومين؟! ألم يتحدثوا عن انخفاض نسب النمو، وارتفاع مؤشرات البطالة، وهشاشة البنية التحية والفوقية للمدن، وتفاقم مشاكل الصحة والتعليم والقضاء والتسيير وغيرها؟؟؟ سكت قليلا ثم أضاف: إن لدي مقترحا بسيطا لو عملت به حكومتنا الموقرة لكان كفيلا بزرع الأمل لدى المواطن. ضحك عياد حتى استلقى على ظهره متمتما: ولم لا؟ فقد تأتي الحكمة من أفواه المجانين، وحتى المدمنين على "العشبة". عليك يا "سايكس بيكو" بديوان رئيس الحكومة لطلب مقابلة سيادته، وعرض مقترحك الساذج، فلعله ينفع في غياب المقترحات البديلة من المعارضة القديمة والحديثة...

انتظر هشام سايكس بيكو طويلا قبل أن يسمح له بمقابلة رئيس الحكومة، أجلسه البواب على كرسي وثير، أجال نظره في أركان المكتب الفسيح قبل أن ينهي رئيس الحكومة مكالمته الهاتفية، ويأمره ببسط مقترحه، فقال:

"سيدي الرئيس: لو تهتمون كل عام بقطاع واحد فقط،تعطونه الأولوية المطلقة، وليكن مثلا قطاع الصحة، توفرون له كافة الإمكانيات المادية والبشرية، فيحمد لكم الجميع نجاحا باهرا في قطاع ذي أهمية بالغة، بدل تشتيت المجهودات على جميع القطاعات دون جدوى. هكذا وبعد أن يتعافى المواطنون من أمراضهم، يمكن التفكير في إعطاء الأولوية لقطاع آخر"...

أحس هشام سايكس بيكو أن البواب يمسكه من تلابيب قفاه، ويجره خارج مكتب رئيس الحكومة دون أن يسمع جوابا. ولم تكن صفعة البواب سوى قطعة خشب هاوية، استفاق على إثرها من حلمه وسط بقايا دخان البراكة المتصاعد.

أمسك قطعة الخشب الباغية، طوح بها وهو يردد ساخرا من حلمه: كان علي أن أقترح على سيادته إعطاء الأولوية لقطاع السكن...

قاقا والأشغال الشاقة

قضى العربي صليان ردحا من الزمن ، مترددا بين زنازين السجون وضائقات الشجون، فقد انتهى به مطاف التيه بائعا بالتقسيط لحبوب القرقوبي، صائلا جائلا بين الأقران والندماء بذراع مخطوطة ، تبدو عليها آثار جروح غائرة، خططها بشفرة سكين حادة في غفلة من دماغه المخمور... يحلو له تقديم نفسه للآخرين بعبارة: قاقا والأشغال الشاقة...

ورغم إدراكه الشديد لدناءة مسعاه الذي يفتك بالعقول والأجسام، ويتسبب في الحوادث والكوارث، فقد ارتقى سلم الخطيئة ليصبح بائعا بالجملة، بعد أن أكسبته جلسات السجون خبرة واسعة، رفعت رصيده المالي في ظرف وجيز، فبات يفكر في تغيير مسعاه وتبييض أمواله...

فتح العربي صليان مقهى وسط المدينة، فتعدد زبناؤه ومرتادوه، وكان من بينهم ثلة من باعة القرقوبي بالتقسيط، ممن تعامل معهم قبل أن يكفوا عن ذلك، إذ ظل يحنو عليهم، فيزودهم بأثمنة ملابس الأعياد، وأثمنة أكباش الأضاحي، وأثمنة لعب عاشوراء للأولاد وغيرها... بل ساهم في إقناع كثير منهم بالعدول عن الاتجار في الممنوعات، وامتهان تجارة الفواكه عبر العربات المتنقلة ونحوها...

ذات مساء، هرعت دورية الشرطة الى مقهى قاقا والأشغال الشاقة، فأخذوا الى المخفر كل المشتبه بهم، وأرادوا اقتياد العربي صليان بصحبتهم، لكنهم هتفوا بلسان واحد: العربي عفا عليه الله بكري آ الشاف، وحنا كذلك...

مضت الفاركونيت باتجاه المخفر على عجل، لكن العربي صليان لم تطاوعه نفسه فمضى خلفهم على الفور حتى دخل على العميد، فشرع يبرئ زبناءه ، ويتودد اليه لإطلاق سراحهم. ولما لم يعثر رجال الأمن على دليل استجاب العميد لطلب العربي صليان فأخلى سبيلهم. ثم عادوا الى المقهى حاملين العربي على أكتافهم، شاكرين وقفته الرجولية الى جانبهم. لكن العربي كان يجيبهم قائلا: إن ما أنا فيه الآن من سعة رزق يعود الى ماجنيته إبان التعامل معكم يا أوغاد... فإنني وإن كنت في السابق قاقا والأشغال الشاقة، أرفض أن يقال عني يوما إن العربي ناكر الجميل على علاته.

قام أحدهم من مكانه صارخا يقول: أما والله إن العربي صليان أحفظ للجميل من وزير في الحكومة خرج علينا هذه الأيام يقول ما معناه: سنتخذ القرارات الصعبة كالزيادة في المحروقات ثم الزيادة في المحروقات ثم الزيادة في الساعات ثم تجميد الأجور والترقيات حتى ولو كلفنا ذلك السقوط في الانتخابات... بالله عليكم، أليس هذا جحودا واستخفافا بمن وضعوا ثقتهم فيه وأعطوه أصواتهم حتى أصبح وزيرا في الحكومة، يتقلب في نعمائها، ويتنكر للحناجر التي بحت في الشوارع والزقازيق، قبل أن ترمى أوراقا في الصناديق...

ضحك رواد مقهى قاقا والأشغال الشاقة حتى بدت نواجدهم متلذذين بالمشروبات التي تبرع بها العربي صليان على الحاضرين...